

الجزء الثالث عشر

وَمَا أُبْرِي نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي ، إِنَّ
رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ (٥٣)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

المعنى الجملى

هذه الآية الكريمة من تمة إقرار امرأة العزيز كما اختاره أبو حيان في البحر ،
ويؤيده عطفه على ما قبله ، وقد جعلت أول الجزء الثالث عشر ، لأن تقسيم القرآن
إلى الأجزاء قد لوحظ فيه مقادير الكلم العددى دون المعانى .

الإيضاح

(وما أبرئ نفسي) أى وما أبرئ نفسي من دعوى عدم خيانتى إياه بالغيب
بعد أن وجهت إليه اقتراح الذنب وقلت ما جزاء من أراد بأهلك سوءا إلا أن
يسجن أو عذاب أليم ، وأودعته السجن وعرف الناس خاصتهم وعامتهم ذلك ،
وكانها بذلك تريد التوصل مما كان .

(إن النفس لأماراة بالسوء) أى إن النفس البشرية لكثيرة الأمر بعمل السوء لما فيها من دواعى الشهوات الجسمية والأهواء النفسية بما ركب فيها من القوى والآلات لتحصيل الذات ، وما يوسوس الشيطان ويزينه لها من النزغات ، ومن ذلك أن حرضت زوجى على سجن يوسف وقد كان ذلك مما يسوءه ، فالعفيف النزيه لا يرضى أن يُزَنَّ بالريبة كما يسوء زوجى إذ لا يرضى أن يكون عرضه مضغة للأفواه وحديث الناس فى أنديتهم وأسمارهم .

(إلا ما رحم ربى) أى إلا نفسا رحمها ربى فضرف عنها السوء والفحشاء بعصمته كنفس يوسف عليه السلام .
ثم علل ما سلف بقوله :

(إن ربى غفور رحيم) أى إن ربى عظيم المغفرة ، فيغفر ما يعترى النفوس بمقتضى طباعها ، إذ ركب فيها الشهوات الجسمية والأهواء النفسية .

تولية يوسف رئيسا لحكومة مصر

وما وقع لإخوته معه حينئذ

وَقَالَ الْمَلِكُ أَتُؤْمِنُ بِمِ اسْتَخْلِصُهُ لِنَفْسِي ، فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ
لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ (٥٤) قَالَ أَجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي خَفِيفٌ
عَلِيمٌ (٥٥)

المعنى الجملى

بعد انتهاء التحقيق فى أمر النسوة وظهور براءة يوسف من كل سوء ، طلب الملك إحضاره إليه من السجن بعد أن وفى له بما اشترط لحبيته - فلما جاءه وسمع كلامه فهم من خوى حديثه ، ومن أمانته على مال العزيز وعرضه وجسني تصرفه ، ومن

سيرته الحسنة في السجن ، ومن علمه وفهمه في تأويله للرؤيا ، ومن حرصه على إظهار شرفه وكرامته في مسألة النسوة ما دل على أنه أهل لأن يرفع إلى أعلى المراتب ويولى أسمى المناصب ، وذلك هو ما فعله الملك لحصافة رأيه وبصره بأقدار الرجال ، ولم يصرفه عن ذلك كونه غريباً أو فقيراً أو مملوكاً ، كما تشير إلى ذلك الآيتان .

الإيضاح

(وقال الملك ائتوني به أستخلصه لنفسي) أى وقال الملك أحضروه من السجن إلى بعد أن وفيت له بما طالب : أجمعه خالصاً لي وموضع ثقتي فلا يشاركه أحد في إدارة ملكي ولا تكون وساطة بينه وبينى . وقد جرت عادة الملوك أن يجعلوا الأشياء النفيسة خالصة لهم دون غيرهم ، قال ابن عباس : إن الرسول أتاه فقال ألق عنك ثياب السجن واللبس ثياباً جُداً و قم إلى الملك فدعا له أهل السجن ودعا لهم وهو يومئذ ابن ثلاثين سنة ، فلما أتاه رآه غلاماً حدثاً ، فقال أيعلم هذا رؤياي ولم يعلمها السحرة والكهنة وأفعده قدامه ، وقال لا تخف وألبسه طوقاً من ذهب و ثياب حرير وأعطاه دابة مسرجة مزينة كدابة الملك وضرب الطبل بمصر إن يوسف خليفة الملك . (فلما كلفه قال : إنك اليوم لدينا مكين أمين) أى فأتوه به فلما كلفه وسمع ما أوجب به ، قال له إنك لدينا ذو مكانة سامية ، ومنزلة عالية ، وأمانة تامة ، فأنت غير منازع في تصرفك ، ولا متهم في أمانتك .

وفي هذا إيماء إلى أن الحوار بين المتخاطبين يظهر معارف الإنسان وأخلاقه وأدابه وجميع شمائله فيقدره من يعرف أقدار الرجال ويزنهم بفضائلهم ومزاياهم . والظاهر أن الملك كلفه مشافهة بدون ترجمان ، لأن يوسف كان قد عرف اللغة المصرية من العزير وامراته بمحادثته إياها ومع حاشية الوزير من حين قدم مصر ، ومن محادثته صاحبيه في السجن .

وقد تكون اللغة التي كان يتكلم بها يوسف لغة جده إبراهيم وأولاده وحفدته

وكانوا من العرب القحطانيين ثم تفرغت من هذه العربية الإسماعيلية فالمصرية والبرانية والسريانية ، وكان ملوك مصر وكبراء حكامها في ذلك العهد من أولئك العرب وهم الذين يسمون بالرعاة (الهكسوس) .

ويقول المؤرخون إن ملك مصر في ذلك العهد كان يسمى الوليد بن الريان .

(قال اجعلني على خزان الأرض) الخزائن واحدها خزانة وهي ما يخزن فيه غلات الأرض ونحوها ، أى قال ولئى خزان أرضك كلها وأكن مشرفا عليها لأتخذ البلاد من مجاعة مقبلة عليها تهلك الحرث والنسل .
ثم ذكر سبب طلبه فقال :

(إني حفيظ عليم) أى إني شديد الحفظ لما يخزن فيها فلا يضيع منه شيء أو يوضع في غير موضعه ، عليم بوجوده تصريفه وحسن الانتفاع به .
وقد طلب إدارة الأمور المالية لأن سياسة الملك وتتمية العمران وإقامة العدل فيه تتوقف عليها ، وقد كان مضطرا إلى تركية نفسه في ذلك حتى يثق به الملك ويركن إليه في تولية هذه المهام .

وما أضع كثيرا من الممالك الشرقية في القرون الأخيرة إلا الجهل والتقصير في النظام المالى وتدمير الثروة وحفظها في الدولة والأمة .

روى أن الملك لما كلفه وقص عليه رؤياه وعبرها له ، قال ما ترى أيها الصديق ؟ قال تزرع في سنى الخصب زرا كثيرا وتبنى الخزائن وتجمع فيها الطعام بقصبه وسنبله فإنه أبقي له ، ويكون النصب علقا للدواب ، فإذا جاءت السنون العجاف بعث ذلك فيحصل لك مال عظيم ، فقاتل الملك ومن لى بهذا ومن يجمعه ويبيعه لى ويكفيينى العمل فيه ؟ قال : اجعلني على خزان الأرض إني حفيظ عليم .

وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَّبِعُونَ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ
بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ (٥٦) وَلَا جُرْ الْآخِرَةِ خَيْرٌ
لِلَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ (٥٧)

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه إجابة الملك له بأنه أصبح لديه مكيثا أميناً وطلب يوسف منه أن يجعله على خزائن الأرض بصرفها على حسب ما يرى من التدبير والنظام والدراية والإحكام .

ذكر هنا أنه أجابه إلى مطالبه وجعله وزيراً في دولته يتصرف في شئونها بحسن تدبيره وثاقب رأيه ، وذلك جار على سنن الله في خلقه ، فإن ينال الرياسات العليا والمناصب الرفيعة إلا من يؤتية الله من المواهب ما يجعله قادراً على ضبط الأعمال وإقامة النظام وحسن السياسة والكياسة في تصريف الأمور .

الإيضاح

(وكذلك مكننا ليوسف في الأرض يتبوا منها حيث يشاء) أى ومثل هذا التمكين الذى سلف ذكر أسبابه ومقدماته ، فقد ذكرنا أن إخوة يوسف لو لم يحسدوه ما ألقوه في غيابة الجب ، ولو لم يلقوه لما وصل إلى عزيز مصر ، ولو لم يعتقد العزيز بفراسته أمانته وصدقه لما أمنه على بيته وماله وأهله ، ولو لم تراوده امرأة العزيز عن نفسه ويستعصم لما ظهرت نزاهته وعرف أمرها ، ولو لم تحب في كيدها وكيد صواحباتها ما ألقى في السجن لإخفاء هذا الأمر ، ولو لم يسجن لما عرفه ساقى الملك وعرف علمه وفضله وصدقه في تعبير الرؤيا ، ولو لم يعرف ذلك منه الساقى ما عرفه ملك مصر ولم يجعله على خزائن الأرض ، فما من حلقة من هذه السلسلة إلا كانت متممة لما بعدها ، وبإذن الله كانت سبباً للوصول إلى ما يليها ، فكأها في بدايتها كانت شراً وخسراً وفي عاقبتها فوزاً ونصراً ميبناً ومهدت للتمكين لدى ملك مصر . فكما مكن له في ذلك مكن له في أرض مصر وقد جرى به مملوكاً فأصبح مالكا ذا نفوذ وأمر ونهى لا ينازعه منازع فيما يراه ويختاره وصار الملك يصدر عن رأيه ولا يعترض عليه فيما يرى بما أعده الله تعالى له من تحلية بالضبر واحتمال الشدائد ، والأمانة والعفة وحسن التصرف والتدبير للأمر .

(نصيب برحمتنا من نشاء) أى نخص برحمتنا من إعطاء الملك والرياسة والغنى والصحة ونحوها من نشاء من عبادنا بمقتضى ما وضعنا من السنن فى الأسباب الكسبية مع موافقتها للأحداث الكونية ومراعاة النظم الاجتماعية والفضائل الخلقية (ولا نضيع أجر المحسنين) أى ولا نضيع أجر من أحسنوا فى أعمالهم بشكران هذه النعم ، بل نأجرهم عليها سعادة وهناءة ، وقد بدلنا تلك النعم لمن يطلبها متى أتى الأمور من أبوابها وسار على مقتضى السنن التى وضعناها .

أما من يسيئون التصرف فيها فتصيبهم المنغصات ، وتتوالى عليهم المكدرات ، فالمسرفون لا يلبثون أن يبالهم الفقر والعُدم ، والظالمون يثيرون أضغان المظلومين ، وذوو الخيلاء والبطر يكونون محقرين ، وقلمنا يصيب المحسنين الشاكرين من ذلك شىء ، وإن نالهم منه شىء يكن أهون عليهم وهم عليه أصبر .

وفى الآية إيماء إلى أنه ما أضع صبر يوسف على أذى إخوته وصبره على الحبس بسبب امرأة العزيز بل كان جزاؤه ما مكن له فى الأرض ولدى ملك مصر .

(ولأجر الآخرة خير للذين آمنوا وكانوا يتقون) أى إن أجر الآخرة وهو نعيمها يكون للمؤمنين المتقين ، وذلك خير لهم من أجر الدنيا لأهلها وإن بلغوا سلطان الملك ، فإن ما أعد له لأولئك ليتضاءل أمامه كل ما فى الدنيا من مال وجاه وزينة ولاشبهة فى أن من يجمعون بين السعادتين يكون فضل الله عليهم أعظم ، إذا هم أعطوا حقها من الشكر وقاموا بما يجب عليهم نحو خالقهم من طاعته وترك معصيته .

روى الشيخان عن أبى صالح عن أبى هريرة قال : « قال فقراء المهاجرين للنبي صلى الله عليه وسلم يارسول الله ذهب أهل الدثور (واحد دثر بالفتح: المال الكثير) بالدرجات العلى والتعيم المقيم ، قال ما ذاك ؟ قالوا يصلون كما نصلى ويصومون كما نصوم ويتصدقون كما تتصدق ويعتقون ولا نعتق ، قال صلى الله عليه وسلم : أفلا أعلمكم شيئاً تدركون به من سبقكم وتسبقون به من بعدكم ؟ ولا يكون أحد أفضل منكم ، إلا من صنع مثلكم ؟ قالوا بلى يارسول الله قال : تسبحون وتكبرون وتحمدون

الله دبر كل صلاة ثلاثا وثلاثين مرة » قال أبو صالح : فرجع فقراء المهاجرين إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا سمع إخواننا أهل الأموال بما فعلنا ففعلوا مثله ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء » .

وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ (٥٨)
وَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَّازِهِمْ قَالَ ائْتُونِي بِأَخٍ لَكُمْ مِنَ أَبِيكُمْ أَلَا تَرَوْنَ
أَنِّي أُوْفِي الْكَيْلَ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ (٥٩) فَإِنْ لَمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلَا كَيْلَ
لَكُمْ عِنْدِي وَلَا تَقْرُبُونِ (٦٠) قَالُوا سُبْحَانَ اللَّهِ عَنَّا وَأَبَاهُ وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ (٦١)
وَقَالَ لِفَتْيَانِهِ اجْعَلُوا بَضَاعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا إِذَا انْقَلَبُوا إِلَى
أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (٦٢)

شرح المفردات

المعرفة والعرفان : معرفة الشيء بتفكير في أثره ، وضده الإنكار ، وجهزهم : أى أوقر ركبائهم بما جاءوا لأجله ، وجهاز السفر : أهبطه وما يحتاج إليه فى قطع المسافة ، ومثله جهاز الميت والعروس (بالكسر والفتح وبهما قرئ) أوفى الشيء : جمعه وأفيا تاما ، المنزليين : أى المضيفين للضيوف ، تراود : أى تخادع ونستميل برفق ، لفاعلون : أى لقادرون على ذلك ، لفتيانه : أى علمانه السكيالين ، بضاعتهم : أى التى اشتروا بها الطعام وكانت نعلا وأدما ، والبضاعة : المال الذى يستعمل للتجارة ، والرحال : واحدها رحل : وهو ما يوضع على ظهر الدابة وفوقه متاع الراكب وغيره ، وانقلبوا : أى رجعوا .

المعنى الجملى

جاء فى سفر التكوين من التوراة أن يوسف علمه السلام حين ولى الوزارة

طفق يُعدُّ العُدَّة ويأخذ الأهبة لتنفيذ التدابير التي بقي بها البلاد من خطر المجاعة التي جاءت في تأويل رؤياه للملك ، وكان من ذلك أن بنى الأهرام العظيمة وخرن فيها الحبوب التي استكثر منها مدة سنى الخصب السبع الأولى ، فلما جاءت السبع الشداد وعم القحط مصر وغيرها من الأقطار القريبة منها ولاسيما أقربها إليها وهي فلسطين من بلاد الشام ، واشتهر لدى أهلها ما فعله يوسف في مصر من حسن التدبير حتى كثرت فيها الغلال وأصبح يبيع ما زاد على حاجة أهلها للأقطار المجاورة لها أمر يعقوب عليه السلام أولاده أن يرحلوا إلى مصر ويأخذوا معهم ما يوجد في بلادهم من بضاعة وتقد فضة ويشتروا به قحجا لأن المجاعة أوشكت أن تقضى عليهم فنفذوا ما أراد وكان بينهم وبين يوسف ما قصه الله علينا في كتابه الكريم .

الإيضاح

(وجاء إخوة يوسف) متتارين حين أصاب أرض كنعان وبلاد الشام ما أصاب مصر ، وكان قد حل بال يعقوب ما حل بأهلها فدعا أبناءه ماعدا بنيامين فقال لهم يابني قد بلغني أن بمصر ملكا صالحا يبيع الطعام فتجهزوا إليه واقصدوه واشتروا منه ما تحتاجون إليه فخرجوا حتى قدموا مصر .

(فدخلوا عليه) وهو في مجلس ولايته ، لأن أمر الميرة وشراء الغلال كان بيده ورهن أمره .

(ففرهم) حين دخلوا عليه بلا تردد إذ كان عددهم وشكاهم وزبهم لا يزال عالقا بخياله لنشوئه بينهم ولاسيما ما قاساه منهم في آخر عهده بهم ، وربما كان عمال يوسف وعبيده قد سألوهم عن أمرهم قبل أن يدخلوهم عليه وأخبروه بأوصافهم والبيئة التي رحلوا منها .

(وهم له منكرون) لنسيانهم له بطول العهد ، وتغير شكله بدخوله في سن الكهولة ، ولما كان عليه من عظمة الملك وزيه وشارته ، وما كان من حاجتهم إلى بره وعطفه .

فكل أولئك مما يحول دون التثبت من معارف وجهه ، ولا سيما أنهم كانوا يظنون أنه قد هلك أو طوّحت به طوائح الأيام ، ولو كانوا قد فطنوا لبعض ملاحظه وتذكروه بها لربما عدوه مما يتشابه فيه بعض الناس ببعض العادات ، وبخاصة أنه لم يكن يدور بخلدكم أن أخاهم قد وصل إلى ذلك المركز السامى .

(ولما جهزهم بجهازهم) أى ولما أوقر ركائبهم بما جاءوا لأجله من الميرة والطعام وجهزهم بما سوى ذلك من الزاد وما يحتاج إليه المسافرون عادة على قدر طاقتهم وبيئتهم . (قال اثنتونى بأخ لكم من أبيكم) هو شقيقه بنيامين ، وسبب ذلك أن يوسف ما كان يعطى لأحد إلا حمل بعير ، وقد كان إخوته عشرة فأعطاهم عشرة أحمال فقالوا إن لنا أبا شيخاً كبيراً وأخا آخر بقى معه ، وإن أباهم لتقدم السن به وشدة حزنه لا يستطيع الحضور ، وإن أخاهم بقى فى خدمة أبيه ، ولا بد لها من شىء من الطعام فجهز لها بعيرين آخرين ، وقال لهم جيئوني بأخيكم لأراه .

وفى سفر التكوين أنه كان استنبأهم عن أنفسهم متذكرا لهم ، إذ عرفهم ولم يعرفوه واتهمهم بأنهم جواسيس جاءوا ليروا عورة البلاد ، فأنكروا ذلك وأخبروه خبرهم ، فقالوا نحن عبيدك اثنا عشر أخا ونحن بنو رجل واحد فى أرض كنعان ، وهذا الصغير عند أينا اليوم ، والواحد منقود ، فقال لهم يوسف ، ذلك ما كلمتكم به قائلاً ، جواسيس أتم ، بهذا تمتمحنون ، وحياة فرعون لا تخرجون من هنا إلا بمجىء أخيك الصغير إلى هنا . فدعوا رهيناً عندى وأتوني بأخيكم من أبيكم ، فافترعوا فأصابت القرعة شمعون خلفوه عنده . ثم أمر يوسف أن تملأ أوعيتهم قمحاً وترد فضة كل واحد إلى عدله وأن يعطوا زادا للطريق ، ففعل لهم هكذا اه .

(ألا ترون أنى أوفى الكيل) أى أتمه ولا أبخسه وأزيدكم حمل بعير لأجل أخيك . (وأنا خير المنزلين) أى وأنا على هذا خير المضيفين لضيوفه ، فقد أحسن ضيافتهم وجهزهم بالزاد الكافى لهم مدة سفرهم ومن هذا يعلم أن رواية اتهامهم بالتجسس ضعيفة على كونها لاتليق بمن دون الصديق النبى وهو يعلم بطلانها ، إلا أن تكون ذريعة لغرض صحيح كاتهامهم بالسرقة .

(فَإِن لَّمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِي) . أى فإذا عدتم تمتارون لأهلكم ولم يكن معكم منعتكم من الكيل فى بلادى فضلا عن إيفائه وإيكاله الذى كان لكم بأمرى .
(ولا تقربون) أى ولا تقربونى بدخول بلادى فضلا عن الإحسان فى الإنزال والضيافة .

وفى ذلك إيماء إلى أنهم كانوا على نية الامتياز مرة بعد أخرى ، وأن ذلك كان معلوما له عليه السلام ، والظاهر أن مافعله معهم كان بوحى ، وإلا فالنبر كان يقتضى أن يبادر إلى أبيه ويستدعيه ، ولعل الله أراد تكليل أجرة يعقوب فى محنته ، وهو الفعال لما يريد فى خلقه .

(قالوا سنراود عنه أباه) أى سنجتهد ونحتال على أن نزرعه سن يده ونحوه عن إرادته فى إبقائه عنده إلى إرادتنا وإرادتك ، وثقتعه بإرساله معنا كما تحب .
(وإنا لفاعلون) ذلك لا محالة ولا تتوانى فيه .
(وقال لفتياناه) أى غلماناه الكياليين .

(اجعلوا بضاعتهم فى رحالمهم) أى اجعلوا بضاعتهم التى اشترى بها الطعام وكانت نعالا وجلودا فى أمتعتهم من حيث لا يشعرون .
(لعلمهم يعرفونها إذا انقلبوا إلى أهلهم) أى لكي يعرفوا لنا حق إكرامهم بإعادتها إليهم وجعل ما أعطيناهم من الغلة مجانا بلا ثمن ، إذا هم رجعوا إلى أهلهم وفتحوا متاعهم فوجدوها فيه .

ثم علل معرفتهم للبضاعة المردودة إليهم بقوله :
(لعلمهم يرجعون) إيلينا طمعا فى برنا ، فإن العوز إلى القوت من أقوى الدواعى إلى الرجوع .

فَلَمَّا رَجَعُوا إِلَىٰ أَيْبِهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مِنَّا أَخَانًا نَّكْتَلُ ، وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ (٦٣) قَالَ هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ

إِلَّا كَمَا أَمَّنْتُكُمْ عَلَىٰ أَخِيهِ مِنْ قَبْلُ ؛ فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ
الرَّاحِمِينَ (٦٤)

الإيضاح

(فلما رجعوا إلى أبيهم قالوا يا أبانا منع منا الكيل) أى قالوا حين رجوعهم إلى أبيهم إن عزيز مصر أصدر أمره بتنع الكيل لنا فى المستقبل إن لم نحضر معنا أخانا بنيامين فقال : (إن لم تأتوني به فلا كيل لكم عندى) .
(فأرسل معنا أخانا نكتل) من الطعام ما نحتاج إليه بقدر عددنا ونكون قد وفينا له بما شرط علينا ، والعرب تقول كلت له الطعام إذا أعطيته ، واكتات منه وعليه إذا أخذت منه أو توليت الكيل بنفسك .

(وإنا له لحافظون) فى ذهابه وإيابه ، فلا يناله مكروه تخافه ، وكأنهم كانوا يعتقدون أن أباهم لا بد أن يرفض إيجابتهم خوفا عليه من أن يحدث له مثل ما حدث ليوسف بدافع الحسد من قبل ، فكان جوابه لهم :

(قال هل آمنكم عليه إلا كما أمنتكم على أخيه من قبل) أى هل أتم صانعون به إلا كما صنعتم بأخيه من قبل ، تغييرونه عنى وتحولون بينى وبينه ، وقد قلت مثل هذا الكلام فى يوسف إذ ضمنت حفظه وقلت (وإنا له لحافظون) ثم ختمت فى عهدكم وكذبتم فأضعتم يوسف ، فأنتم لا يوثق لكم بوعده ولا يطمأن منكم إلى عهد ، فما أشبه الليلة بالبارحة .

(فالله خير حافظا) أى فأنا أتوكل على الله فى حفظ بنيامين لاعلى حفظكم .
(وهو أرحم الراحمين) فأرجو أن يرحمى بحفظه ولا يبتلىنى بفقدته كما ابتلانى من قبل بفقد أخيه يوسف ، فرحمته واسعة ، وفضله عظيم .

وهذا كما ترى ، فيه ميل منه إلى الإذن والإرسال لما رأى من شدة الحاجة إلى ذلك ، ولأنه لم يرفقا بينهم وبين بنيامين من الحقد والحسد مثل ما شاهد بينهم وبين يوسف ، وفيه من التوكل على الله مالا يخفاء فيه .

وَلَمَّا فَتَحُوا مَتَاعَهُمْ وَجَدُوا بِضَاعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا
 مَا نَبَغِي؟ هَذِهِ بِضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا وَنَمِيرُ أَلْمَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَنَا وَنَزِدَادُ
 كَيْلٍ بِعِيرٍ ذَلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ (٦٥) قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّى تُؤْتُونِ
 مَوْثِقًا مِنْ اللَّهِ لَتَأْتُنَّنِي بِهِ إِلَّا أَنْ يُحَاطَ بِكُمْ ، فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ
 اللَّهُ عَلَى مَا تَقُولُونَ وَكَيْلٌ (٦٦)

شرح المفردات

المتاع : ما ينتفع به والمراد هنا وعاء الطعام ، والبضاعة : ثمن ما كانوا أعطوه من
 الطعام ، ونمير أهلنا : أى نجلب لهم الميرة (بالكسب) وهى الطعام يجلبه الإنسان من
 بلد إلى بلد ، كيل بعير : أى حمل جبل ، فكيل بمعنى مكيل ، ويسير : أى قليل
 لا يكثر على سخائه كما جاء فى قوله : « وَمَا تَلْبَثُوا بِهَا إِلَّا يَسِيرًا » أو سهل لاعسر
 فيه كما فى قوله : « وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا » والموثق : العهد الموثق ، إلا أن
 يحاط بكم : أى إلا أن تغلبوا على أمركم أو إلا أن تهلكوا ، فإن من يحيط به العدو
 يهلك غالباً ، وكيل : أى مطلع رقيب ، فإن الموكل بالأمر يراقبه ويحفظه .

الإيضاح

(ولما فتحوا متاعهم وجدوا بضاعتهم ردت إليهم) أى ولما فتحوا أوعية طعامهم
 وجدوا فيها ما كان أعطوه من بضاعة ونقد ثمنها لما اشتروه من الطعام ، إذ أن يوسف
 أمر فتيانه أن يضعوها فى رحالهم وهم لا يعلمون ذلك .

(قالوا يا أبانا ما نبغى ؟) أى ماذا نطلب وراء ما وصفنا لك من إحسان الملك
 إلينا وكرمه الذى يوجب علينا امتثال أمره ومراجعته فى الحوائج ، وقد كانوا حدثوا أباهم
 بذلك على ما روى أنهم قالوا له إنا قدمنا على خير رجل وقد أنزلنا خير منزل

وأكرم وفادتنا ولو كان رجلا من آل يعقوب ما أكرمنا كرامته ، ثم استدلوا على هذا بقولهم :

ثم أكدوا صدق كلامهم بقولهم :

(هذه بضاعتنا ردت إلينا) أى إن ما نقول فى وصفه ومزيد إحسانه ولطفه لنا من شواهد الحال ما هو دليل عليه ، فهذه بضاعتنا ردت إلينا فضلا منه بعد أن أثقل كواهلنا بعظيم مننه وجليل عطفه .

وهم بهذا يوشون إلى أن ذلك كاف فى وجوب امثال أمره والالتجاء إليه طلبا للمزيد من فضله ، فكل ما جئنا به على غلائه وعظم قيمته هو هبة منه وتفضل علينا . (وغير أهلنا) أى فنحن ننتفع ببضاعتنا ونمير أهلنا بما نجلبه لهم من الميرة من مصر بلائمن .

(ونحفظ أماننا) بعنايتنا جميعا به ، على أننا لا نخشى شيئا من المخاوف التى تغلبنا عليه .

(وتزداد كيل بعير) أى وتزيد على ما نأخذ لأنفسنا حمل جمل يكال لأخيئنا ، لأن يوسف كان يكيل لكل رجل حمل بعير اقتصادا فى الطعام ، فإذا حضر بنيامين زاد حماله .

(ذلك كيل يسير) أى إن حمل البعير كيل سهل لاعسر فيه على ذلك المحسن الجواد ، أو هو قليل لا يكثر على سخائه وجوده ولا يشق عليه .

(قال لن أرسله معكم حتى تؤتون موثقا من الله) أى لن أرسله معكم حتى تعطونى عهدا موثقا بتأكيده بإشهاد الله عليه بالقسم به .

(لتأتنى به إلا أن يحاط بكم) أى حتى تحلقوا بالله لترجعنّ به على كل حال تعرض لكم ، إلا أن تهلكوا فيكون ذلك عندى عذرا على نحو ما جاء فى قوله : « وَأُحِيطَ بِمِثْرِهِ » وقوله : « وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ » وقد يكون المعنى - إلا أن تغلبوا على أمركم وتقهروا فلا تقدرن على الرجوع .

(فلما آتوه موتهم قال الله على ما نقول وكيل) أى فلما أعطوه العهد الموثق الذى اشترطه عليهم ، قال : الله شهيد على ما قاله واشترطه ، وعلى ما أجابوه به : أى إنه سبحانه رقيب عليه وأمره موكل إليه ، فهو الذى يوفق للوفاء بالوعد والصدق فيما أعطى من عهد .

وَقَالَ يَا بَنِيَّ لَا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ
وَمَا أَغْنَىٰ عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ، إِنَّ الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ
وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ (٦٧) وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُمْ
مَا كَانَ يُغْنِي عَنْهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا حَاجَةٌ فِي نَفْسٍ يَعْتُوبَ قَضَاهَا ،
وَإِنَّهُ لَدُوٌّ عَلِيمٌ لِمَا عَمَلْنَا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٦٨)

الإيضاح

(وقال يا بنى لا تدخلوا من باب واحد وادخلوا من أبواب متفرقة) أى وقال لهم يا بنى لا تدخلوا على هذا الوزير الكريم من باب واحد من أبواب الوصول إليه ، بل ادخلوا عليه متفرقين من أبواب متعددة ، لتروا بأعينكم ما يكون من تأثير كل طائفة منكم فى نفسه وما يظهر على أسارير وجهه وحركات عينيه حين رؤية شقيقه يدخل عليه مع طائفته إذ لا يعلم هذا إذا دخلوا عليه كلهم جماعة واحدة .

وقد يكون المراد لا تدخلوا عليه مجتمعين فيحسدكم الحاسدون أو يكيد لكم الكائنون ، فإذا حل بكم مكروه خشيت أن يصيبكم جميعا .

(وما أغنى عنكم من الله من شيء) أى وما أذفع عنكم بتدبيرى من قضاء الله شيئا ، إذ لا يغنى حذر من قدر ، وهو لا يريد إلغاء الحذر بتاتا فإنه تعالى أمر به وقال « خذُوا حِذْرَكُمْ » بل يريد أن هذا التدبير إنما هو تشبث بالأسباب

العادية التى لا تؤخر إلا بإذن الله تعالى ، وأن ذلك ليس بدافع للقدر بل هو استعانة بالله تعالى وهرب منه إليه .

(إن الحكم إلا لله) أى ما الحكم فى تدبير العالم ونظم الأسباب والمسببات إلا لله وحده .

(عليه توكلت) أى عليه دون غيره ، ودون حولى وقوتى اعتمدت فى كل ما آتى وأذرت .

وفى هذا إيماء إلى أن الأخذ فى الأسباب ومراعاة اتباعها لا ينافى التوكل ، وقد جاء فى الخبر « اعقلها وتوكل » .

(وعليه فليتوكل المتوكلون) لا على أمثالهم من مخلوقين ولا على أنفسهم .
فعلى كل مؤمن أن يتخذ لكل أمر يقدم على عمله العدة ويهيئ من الأسباب ما يوصل إليه على قدر طاقته ، ثم بعد ذلك يكل أمر النجاح فيه إلى الله ويطلب منه التوفيق والمعونة فى إنجازها ، فقد يكون من الأسباب ما ينجى عليه أو ما لا تصل إليه يده .

(ولما دخلوا من حيث أمرهم أبوهم) وهى الأبواب المتفرقة .
(ما كان يعنى عنهم من الله من شيء) أى ما كان دخولهم على هذا النهج يدفع عنهم شيئاً من المكروه الذى يحول دون رجوعهم بينيامين ، ونسبتهم إلى السرقة ، وتضاعف المصيبة على يعقوب .

(إلا حاجة فى نفس يعقوب قضاها) أى إن يعقوب كان عليماً بأن الحذر لا يعنى من القدر ، ولكن كانت هناك حاجة تدور بخلده ، ما أراد أن يكشف بها أحداً منهم ، وهى وراء الأسباب العادية فى الاحتياط بسلامة بينيامين والعودة به ، قضاها بوصيته لأولاده من حيث لا يفتنون لها ، وهى خوفه عليهم من العين ومن أن ينالهم مكروه من قبل ذلك .

(وإنه لذو علم لما علمناه) أى لذو علم خاص به وبأمثاله من الأنبياء ، لما أعطيناه من علم الوحى وتأويل الرؤيا الصادقة ، واعتقاده أن الإنسان يجب عليه

في كل أمر يحاوله أن يتخذ له من الأسباب ما يصل به إلى غرضه ويبلغ به إلى غايته ثم يتوكل بعد ذلك على الله في تسخير ما لم يصل إليه علمه مما لا تتم المقاصد بدونه .

(ولكن أكثر الناس لا يعلمون) أن الواجب الجمع بين أخذ العدة والسعي في تحقيق الأسباب الصحيحة الموصلة إلى المراد ، وبين الانكسال على الله وهو ما فعله يعقوب عليه السلام ، ولا يكفي تحقيق الأسباب وحدها للحصول عليه .

وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَخَاهُ قَالَ إِنِّي أَنَا أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئَسْ
بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٦٩) فَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ السَّقَايَةَ فِي رَحْلِ
أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَتَيْهَا الْعَيْرُ لَكُمْ لَسَارِقُونَ (٧٠) قَالُوا وَقَبِلُوا عَلَيْهِمْ
مَاذَا تَفْقِدُونَ؟ (٧١) قَالُوا تَفْقِدُ صُوَاعَ الْمَلِكِ وَلِمَن جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ
وَأَنَا بِه زَعِيمٌ (٧٢) قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ
وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ (٧٣) قَالُوا فَا جَزَاؤُهُ إِنْ كُنْتُمْ كَاذِبِينَ؟ (٧٤) قَالُوا
جَزَاؤُهُ مَن وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ (٧٥)
فَبَدَأَ بِأَوْعِيَّتِهِمْ قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرِجَهَا مِنْ وِعَاءِ أَخِيهِ ، كَذَلِكَ
كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ ،
نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَن نَشَاءُ ، وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ (٧٦) .

شرح المفردات

آوَى إليه : أى ضم إليه ، والابتئاس : اجتلاب البؤس والشقاء ، والسقاية
(بالكسر) وعاء يسقى به ، وبه كان يكال للناس الطعام ويقدر بكيلة مصرية $\frac{1}{3}$

من الإردب المصرى ، وهو الذى عبر عنه بصواع الملك ، وأذن مؤذن : أى نادى مناد ، من التأذين وهو تكرار الأذان والإعلام بالشيء الذى تدركه الأذن ، والعبير : الإبل التى عليها الأحمال والمراد أحبابها ، زعيم : كقيل أجعله جزاء لمن يجىء به ، الكيد : التدبير الذى يخفى ظاهره على المتعاملين به حتى يؤدى إلى باطنه المراد منه ، ودين الملك : شرعه الذى يدين الله تعالى به .

الإيضاح

(ولما دخلوا على يوسف آوى إليه أخاه) أى لما دخلوا عليه فى مجلسه الخاص بعد دخولهم باحة القصر من حيث أمرهم أبوم، ضم إليه أخاه الشقيق بنيامين، وقد حصل ما كان يتوقع يعقوب أوفوق ما كان يتوقع من الحلب عليه والعناية التى خصه بها .

(قال إني أنا أخوك) يوسف الذى قدتموه صغيرا .

(فلا تبتئس بما كانوا يعملون) أى فلا يلحقك بعد الآن بؤس أى مكروه

ولا شدة بسبب ما كانوا يعملون من الجفاء وسوء المعاملة بحسدهم لى ولك .

روى أنهم قالوا له : هذا أخونا قد جئناك به فقال لهم أحسنتم وأصبتم وستجدون أجر ذلك عندى فأنزلهم وأكرمهم ثم أضافهم وأجلس كل اثنين منهم على مائدة فبقى بنيامين وحده فبكى وقال لو كان أخى يوسف حيا لأجلسنى معه ، فقال يوسف بقى أخوكم وحيدا ، فأجلسه معه على مائدته وجعل يؤاكله ، وقال أنتم عشرة فلينزل كل اثنين منكم بيتا (حجرة) وهذا لا ثانى له فيكون معى ، فبات يوسف يضمه إليه ويشم رائحته حتى أصبح وسأله عن ولده ، فقال لى عشرة بنين اشتقت أسماءهم من اسم أخ لى هلاك فقال له : أتحب أن أكون أخاك بدل أخيك الهالك ؟ قال من يجد أخا مثلك ؟ ولكن لم يلدك يعقوب ولا راحيل ، فبكى يوسف وقام إليه وعانقه وقال له : إني أنا أخوك الخ .

(فلما جهزهم بجهازهم جعل السقاية في رحل أخيه) أى لما قضى لهم حاجتهم ووفاهم كيلهم جعل الإناء الذى يكيل به الطعام في رحل أخيه .

وفي قوله : جعل السقاية ، إيماء إلى أنه وضعها بيده ولم يكل ذلك إلى أحد من فتيانه كتجهيزهم الأول والثاني لئلا يطلعوا على مكيدته .

(ثم أذن مؤذن) أى وقد افتقد فتيانه السقاية ، لأنها الصواع الذى يكيلون به للمنتارين فلم يجدوها ، فأذن مؤذنهم بذلك أى كرر النداء به كدأب الذين ينشدون المفقود في كل زمان ومكان قائلا :

(أيتها العير إنكم لسارقون) أى يا أصحاب العير قد ثبت عندنا أنكم سارقون فلا ترحلوا حتى ننظر في أمركم .

(قالوا : وأقبلوا عليهم ماذا تفقدون ؟) أى قال إخوة يوسف للمؤذن ومن معه : أى شئ تفقدون ، وما الذى ضل عنكم فلم تجدوه ؟ .

(قالوا نفقد صواع الملك) أى نفقد الصواع الذى عليه شارة الملك .

(ولمن جاء به حمل بعير) أى ولمن أتى به حمل جبل من القمح ، وفي هذا دليل على أن عيرهم كانت الإبل لا الحير .

(وأنا به زعيم) أى قال المؤذن وأنا كفتيل بحمل البعير ، أجمعه خلوانا لمن يجيء به ، سواء أكان مفقودا أم جاء به غير سارقه .

(قالوا تالله لقد علمتم ما جئنا لنفسد في الأرض وما كنا سارقين) أى قالوا لقد علمتم بما خبرتموه من أمرنا وسيرتنا من حين مجئنا في امتيارنا الأول وحين عودتنا إذ رددنا بضاعتنا التي ردت إلينا مع غيرها ، أننا ما جئنا لنفسد في أرض مصر بسرقة ولا غيرها مما فيه تعد على حقوق الناس .

(قالوا فما جزاؤه إن كنتم كاذبين) أى قال فتيان يوسف لهم : فما جزاء سارقه إن كنتم كاذبين في جحودكم للسرق وادعائكم البراءة والنزاهة ؟

(قالوا جزاؤه من وجد في رحله) أى جزاؤه أخذ من وجد في رحله وظهر أنه هو السارق له وجعله عبدا لصاحبه ، وقوله :

(فهو جزاؤه) تقرير للحكم السابق وتأكيده بإعادته ، كما تقول حق الضيف أن يكرم فهو حقه ، والقصد من الأول إفادة الحكم ، ومن الثانى إفادة أن ذلك هو الحق الواجب فى مثل هذا ، وقد كان الحكم فى شرع يعقوب أن يسترق السارق سنة . (كذلك نجزي الظالمين) أى مثل هذا الجزاء الأوفى نجزي الظالمين للناس بسرقة أمتعتهم وأموالهم فى شريعتنا ، فنحن أشد الناس عقابا للسراق .

وهذا تأكيدهم بعد تأكيدهم لثقتهم ببراءة أنفسهم .

(فبدأ بأوعيتهم قبل وعاء أخيه) أى فبدأ يوسف بتفتيش أوعيتهم التى تشتمل عليها رحالهم ابتعادا عن الشبهة وظن التهمة بطريق الحيلة .

(ثم استخرجها من وعاء أخيه) أى ثم إنه بعد أن فرغ من تفتيش أوعيتهم فقتش وعاء أخيه فأخرج السقاية منه .

(كذلك كدنا ليوسف) أى مثل هذا الكيد والتدبير الخفى كدنا ليوسف وأهلهنا إياه وأوحينا إليه أن يفعله .

ذلك أن الحكمة الإلهية اقتضت تربية إخوة يوسف وعقابهم بما فرطوا فى يوسف ، واستحقاقهم إتمام النعمة عليهم يتوقف على أخذه بطريق لا جبر فيه ولا تقتضيه شريعة الملك ، وبه يدوقون ألم فراق بنيامين ومرارته ، فيما لا لوم فيه على أحد غير أنفسهم ، وإن يكون هذا الحكم منهم إلا بتوقع شبهة السرقة على بنيامين من حيث لا يؤذيه ذلك ولا يؤلمه ، وقد أعلمه أخوه يوسف به وبغاياته . وفى هذا إيماء إلى جواز التوصل إلى الأغراض الصحيحة بما ظاهره الحيلة والمكيدة إذا لم يخالف شرعا ثابتا .

ثم علل ما صنعه الله من الكيد ليوسف بقوله :

(ما كان ليأخذ أخاه فى دين الملك) أى وما كان له ولا مما تبيخه أمانته

ملك مصر أن يخالف شرعه الذي فوض له الحكم به وهو لا يبيح استرقاق السارق، فما كان بالميسور له أخذ أخيه من إخوته ومنعه من الرحيل معهم إلا بحكمهم على أنفسهم بشريعة يعقوب التي تبيح ذلك.

ولما كانت هذه الوسيلة إلى تلك الغاية الشريفة منكورة على حسب الظاهر، لأنها تهمة باطلة، وكان من شأن يوسف أن يتباعد عنها ويتحاماها إلا بوحي من الله - بين أنه فعل ذلك بإذن الله ومشيبته فقال :

(إلا أن يشاء الله) أي إنه فعل ذلك بإذن الله ووحيه، لأنه هو الذي اخترع هذه للمكيدة.

(ترفع درجات من نشاء) أي ترفع من نشاء درجات كثيرة في العلم والإيمان ونزيره وجوه الصواب في بلوغ المراد، كما رفعنا درجات يوسف على إخوته في كل شيء.. وفي هذا إيحاء إلى أن العلم أشرف المقامات، وأعلى الدرجات.

(وفوق كل ذي علم عليم) أي وفوق كل عالم من هو أوسع إحاطة منه وأرفع درجة، إلى أن يصل الأمر إلى من أحاط بكل شيء علما وهو فوق كل ذي علم. وخلاصة ذلك - أن إخوة يوسف كانوا علماء إلا أن يوسف كان أعلم منهم.

قَالُوا إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ ، فَأَسْرَهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ ، قَالَ أَنْتُمْ شَرُّ مَكَانًا وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ (٧٧)
قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ (٧٨) قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ أَنْ نَأْخُذَ إِلَّا مَنْ وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِنْدَهُ إِنَّا إِذًا لَظَالِمُونَ (٧٩).

الإيضاح

(قَالُوا إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ) أي قال إخوة يوسف، إن

يسرق بنيامين فقد سرق أخوه يوسف من قبل ، فالسرقة جاءت ورائة من أمهما إذ هما لا يتفردان عنا إلا بها . وفي قولهم هذا إيماء إلى أن الحسد لا يزال كامنا في قلوبهم ، لاختلاف الأمهات ، ولزيد محبة الأب لهما .

وأصح ما قيل في سرقة يوسف ما رواه ابن مردويه عن ابن عباس مرفوعا قال : سرق يوسف عليه السلام صنبا لجدته أبي أمه من ذهب وفضة فكسره وألقاه في الطريق فميره بذلك إخوته .

وأخرج ابن اسحاق وابن جرير وابن أبي حاتم عن مجاهد قال : كان أول ما دخل على يوسف عليه السلام من البلاء فيما بلغني أن عمته وكانت أكبر ولد إسحاق عليه السلام وكانت إليها منطقة إسحاق إذ كانوا يتوارثونها باليكبر ، وكان يعقوب حين ولد له يوسف عليه السلام قد حضنته عمته فكان معها ، فلم يجب أحد شيئا من الأشياء كحبها إياه حتى إذا ترعرع ووقعت نفس يعقوب عليه السلام عليه فأتاها فقال يا أختي سلمى إلى يوسف ، فوالله ما أقدر على أن يغيب عنى ساعة ، قالت : فوالله ما أنا بتاركته فدعه عندي أياما أنظر إليه لعل ذلك يسليني عنه ، فلما خرج يعقوب من عندها عمدت إلى منطقة إسحاق عليه السلام فحزمتها على يوسف عليه السلام من تحت ثيابه ، ثم قالت فقدت منطقة إسحاق فانظروا من أخذها ومن أصابها ؟ فالتفت ثم قالت : اكشفوا أهل البيت فكشفوهم فوجدوها مع يوسف عليه السلام ، فقالت والله إنه لسلّم لي أصنع فيه ماشئت ، فأتاها يعقوب فأخبرته الخبر فقال لها : أنتِ وذلك إن كان فعل فهو سلّم لك ما أستطيع غير ذلك ، فأمسكته فما قدر عليه حتى ماتت .

وهذا هو الذي عناه إخوته بقولهم (إن يسرق فقد سرق أخ له من قبل) وهذه الروايات لا يوثق بها كما لا يدل شيء منها على سرقة حقيقية .

(فأسرها يوسف في نفسه) أي فأضمر مقالتهم في نفسه ولم يجهم عنها .

(ولم يبدها لهم) أي ولم يؤاخذهم بها لا قولاً ولا فعلاً صفحا عنهم وحلما .

ثم فسر ما أسره بقوله :

(قال أنتم شر مكانا) أى لكانه قال فى نفسه أنتم شر فى مكاتكم ومنازلتكم مما تعرضون به أو تفترونه ، إذ أنكم سرقتم من أيكم أحب أولاده إليه وعرضتموه للهلاك والرق ، وقتلتم لأبيكم قدأكله الذئب الخ .

(والله أعلم بما تصفون) أى والله أعلم منكم بما تصفونه به ، لأنه سبحانه هو العالم بحقائق الأشياء ، فيعلم كيف كانت سرقة الذى أحلتم سرقة عليه .
ثم أرادوا أن يستعطفوه ليطلق لهم أخاه بنيامين فيرجعوا به إلى أبيهم ، لأنه قد أخذ عليهم الميثاق بأن يردوه إليه .

(قالوا ياأيها العزيز إن له أبا شيخا كبيرا) طاعنا فى السن لا يكاد يستطيع فراقه وهو علالته التى يتعمل بها عن شقيقه الهالك ، أو هو كبير القدر جدير بالرعاية كما علفت مما سلف من قصصه ومن تعلقه به .
(نخذ أحدنا مكانه) أى بدله فلسنا عنده بمنزلته فى المحبة والشفقة عنده .

ثم عللوا ذلك بقولهم :

(إنا نراك من المحسنين) إلينا فى ميرتنا وضيافتنا وتجهيزنا ، فأتم إحسانك ، فما الإنعام إلا بالإتمام ، أو المعنى إن من عادتك الإحسان مطلقا ، فأجر على عادتك ولا تغيرها ، فنحن أحق الناس بذلك .
فأجابهم عن مقالتهم :

(قال معاذ الله أن نأخذ إلا من وجدنا متاعنا عنده) أى حاش لله أن نأخذ إلا من وجدنا الصواع عنده ، لأننا قد أخذناه بفتواكم (من وجد فى رحله فهو جزاؤه) فلا يسوغ لنا أن نخل بموجها .

ولم يقل إلا من سرق متاعنا اتقاء للكذب ، لأنه يعلم أنه ليس بسارق .
(إنا إذا لظالمون) أى إنا إذا أخذنا غيره لظالمون من وجهين : مخالفة شرعكم ونص فتواكم ، ومخالفة شريعة الملك .

فَلَمَّا اسْتَيْسَـؤُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ
 آبَاءَكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُمْ مَوْتَقًا مِنَ اللَّهِ وَمِنْ قَبْلُ مَا فَرَّطْتُمْ فِي يُوسُفَ ،
 فَلَنْ أَرْجَحَ الْأَرْضَ حَتَّى يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يُحْكَمَ اللَّهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ
 الْحَاكِمِينَ (٨٠) أَرْجِعُوا إِلَى آبَائِكُمْ فَقُولُوا يَا آبَاءَنَا إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ
 وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلَّمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ (٨١) وَاسْتَمَلَ الْقَرْيَةَ
 الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعَيْرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا وَإِنَّا لَصَادِقُونَ (٨٢) قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ
 لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ، عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا ، إِنَّهُ
 هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (٨٣) وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسْفَا عَلَى يُوسُفَ وَإِیْضَتْ
 عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ (٨٤)

شرح المفردات

استيسأوا : أى يتسأوا بأساً كاملاً ، خلصوا : انفردوا عن الناس ، نجياً : أى
 متناجين متشاورين فيما يقولون لأبيهم ، كبيرهم : أى فى الرأى والعقل وهو يهوذا ،
 وموتقاً : أى عهداً يوثق به وهو حلفكم بالله ، فرطتم : قصرتم فى شأنه ولم تحفظوا
 عهد أياكم فيه ، أرجح : أفارق ، أمراً : أى كيدا آخر ، تولى : أعرض ، والأسف :
 أشد الحزن والحسرة على ما فات ، كظيم : أى مملوء غيظاً على أولاده ممسك له فى قلبه ،
 القرية : باسم للموضع الذى يجتمع فيه الناس وللناس جميعاً ، ويستعمل فى كل واحد
 منهما قاله الراغب

الإيضاح

(فلما استيسأوا منه خلصوا نجياً) أى فلما استحکم اليأس فى أنفسهم من قبول
 العزير لشفاعتهم واستمطافهم بعد أن أقام الحجة عليهم بشرعهم وفتواهم وأنه إن فعل

غيره يكون ظالماً بمقتضى شريعتهم وشريعة ملك مصر - اعتزلوا الناس ولم يخاطبوا أحداً ، وانفردوا للمناجاة والتشاور في أمرهم .

وخلاصة ذلك - إن أولئك الإخوة العشرة بعد أن انتهى كبيرهم من استعطاف العزيز وعدم جدوى ما فعل ، غادر كل منهم رحله وانضم بعضهم إلى بعض وأدنى رأسه من رأسه وأرهنوا آذانهم للنجوى .

(قال كبيرهم ألم تعلموا أن أباكم قد أخذ عليكم موثقا من الله) أي قال كبيرهم عقلا ورأيا وهو يهودا : ألم تعلموا أيها القوم أن أباكم يعقوب قد أخذ عليكم عهد الله وميثاقه لتردته إليه إلا أن يحاط بكم ، وقد رأيتم كيف تعذر ذلك عليكم .

(ومن قبل ما فرظتم في يوسف) أي ومن قبل هذا قد قصرتم في حفظ يوسف بعد وعدهم المؤكد بحفظه ، وكيف إن أباكم قد قاسى من الحزن ما قاسى .

(فلن أبرح الأرض حتى يأذن لي أبي أو يحكم الله لي) أي فلن أفرق أرض مصر ، حتى يأذن لي أبي بتركها والرجوع إليه وبنيامين فيها ، أو يحكم الله لي بأمر من عنده مما هو غيب في علمه ، كأن يترك العزيز لي أخي بإلهام منه تعالى أو بسبب آخر .

(وهو خير الحاكمين) لأنه لا يحكم إلا بما هو الحق والعدل ، وهو المسخر للأسباب والمقدر للأقدار .

ثم أمرهم بأن يقولوا لأبيهم ما يزيلون به التهمة عن أنفسهم قال : (ارجعوا إلى أبيكم فقولوا يا أبانا إن ابنك سرق) صواع الملك فاسترقه وزيره العزيز القائم بالأمر في مصر عملا بشريعتنا ، إذ نحن أنبأناه بها بعد أن استنبأنا إياها . (وما شهدنا إلا بما علمنا) أي وما شهدنا عليه بالسرقه بسماع أو إشاعة أو تهمة بل ما شهدنا إلا بما علمنا إذ رأينا الصواع قد استخرج من متاعه .

(وما كنا للغيب حافظين) فنعلم أنه سيسرق حين أعطيناك الموثيق ، ولو كنا نعلم ذلك لما آتيناك العهد الموثق علينا .

(واسأل القرية التي كنا فيها) أى وأسأل أهل القرية التي كنا ننتار فيها وهى مصر، فقد اشتهر فيهم أمر هذه السرقة حتى لو سئلوا لشهدوا .

(والعير التى أقبلنا فيها) أى ولأسأل أصحاب العير الذين كانوا يمتارون معنا . ثم أكدوا صدق مقالهم بقولهم :

(وإنا لصادقون) فيما أخبرناك به ، سواء أسألت غيرنا أم لم تسأل ، إذ أن من عادتنا الصدق فلا نخبرك إلا به ولا نظنك فى مرية من هذا .

وبعد أن انتهى تعالى من سرد مقال كبيرهم عاد إلى ذكر مقال أبيهم فقال :

(قال بل سوات لكم أنفسكم أمرا) أى فرجع الإخوة إلى أبيهم وقالوا له ما لقتهم كبيرهم فلم يصدقهم فيما قالوا ، بل قال لهم بل زينت لكم أنفسكم كيدا آخر فنقدتموه ، ومما يقوى ذلك عندى أنكم تفتنم هذا الرجل حكم شريعتنا وأفتنتموه به وليس ذلك من شريعتنا .

(فصبر جميل) أى فخالى على ما نالنى من فقدته صبر جميل لا جزع فيه ولا شكاية لأحد ، بل أشكو إلى الله وحده وأعلق رجائى به .

(عسى الله أن يأتينى بهم جميعا) أى أطلب من الله أن يرجع إلى يوسف وبنيامين والأخ الثالث الباقى بمصر ، وقد كان لديه إلهام بأن يوسف لم يمت وإن غاب عنه خبره .

(إنه هو العليم الحكيم) أى إنه العليم بوجدتى وفقدهم والحزن عليهم ، وله فىنا حكمة بالغة وهو الحكيم فى أفعاله فيبتلى ويرفع البلاء على مقتضى سننه وحكمته فى تدبير خلقه ، وقد جرت سننه أن الشدة إذا تناهت جعل وراءها فرجا والمصيبة إذا عظمت جعل بعدها الخالص منها . كما قال (فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا) .

(وتولى عنهم) أى أعرض عنهم كراهة لما جاءوا به .

(وقال يا أسفا على يوسف) أى يا حزنى ويا حسرتى عليه أقبلى فهذا وقتك

والحال مقتضية لك ، فقد كنت أنتظر أن يأتوني من مصر يبشرى لقاء يوسف ،
نخاب أملى وحل محله ذهاب ابني السلى عنه ، ولم يشرك معه بنيامين بالأسف عليه ،
لأن مكان حب يوسف والرجاء فيه قد ملأ تسويداء القلب وزواياه ، وحل غيره
دون ذلك .

(وابتضت عيناه من الحزن) أى أصابتهما غشاوة بيضاء غطت على البصر مع
بقاء العصب الذى يدرك المبصرات سليما مفاى ، قال الدكتور عبدالعزيز إسماعيل باشا:
البيضاء المصحوب بضياء البصر غالبا معناه (الجلو كوما) والمعروف عند الاختصاصيين
في أمراض العيون أن أهم سبب لها هو التغيرات فى الأوعية الشعرية نتيجة لأسباب
كثيرة من أهمها الاضغالات العصبية (كما يحدث فى زيادة ضغط الدم) لاسيما الحزن
(الدكتور ملر) اه .

(فهو كظيم) أى مملوء غيظا على أولاده ، يردد حزنه فى جوفه ولا يتكلم بسوء ؛
والحزن عرض طبيعى للنفس ولا يذم شرعا إلا إذا بلغ بصاحبه أن يقول أو يفعل
ما لا يرضى الله تعالى ، ومن ثم قال النبي صلى الله عليه وسلم عند موت ولده إبراهيم
وقد جعلت عيناه تدرقان فقال له عبد الرحمن بن عوف وأنت يارسول الله : « يا ابن
عوف إنها رحمة » ثم أتبعها بأخرى فقال : « إن العين تدمع والقلب يخشع ولا تقول
إلا ما يرضى ربنا ، وإنا بفراقك يا إبراهيم محزونون » رواه الشيخان وغيرهما .

وفى التفسير بالمأثور عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « إن داود عليه السلام
قال : يارب إن بنى إسرائيل يسألونك بإبراهيم وإسحاق ويعقوب ، فاجعلنى لهم
رابعا ، فأوحى الله إليه أن : ياداود إن إبراهيم ألقى فى النار بسببى فصبر ، وتلك بلية
لم تتلك ، وإن إسحاق بذل مهجة دمه بسببى فصبر ، وتلك بلية لم تتلك ، وإن
يعقوب أخذت منه حبيبه فابتضت عيناه من الحزن ، وتلك بلية لم تتلك » قال الحافظ
ابن كثير : وهذا حديث مرسل وفيه نكارة ، فإن الصحيح أن إسماعيل هو الذييح اه .

قَالُوا تَاللَّهِ تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّى تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ
 مِنَ الْهَالِكِينَ (٨٥) قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ
 اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٨٦) يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ
 وَلَا تَيَاسُؤْا مِنْ رُوحِ اللَّهِ ، إِنَّهُ لَا يَيَاسُ مِنْ رُوحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ
 الْكَافِرُونَ (٨٧)

شرح المفردات

تفتأ: أى لا تفتأ بمعنى لا تزال ، والحرض: المرض المشفى على الهلاك ، من
 الهالكين: أى الميتين ، البث فى الأصل: إثارة الشئ وتفريقه كبث الريح التراب،
 ثم استعمل فى إظهار ما انطوت عليه النفس من الغم أو السر، وتحسسوا: أى تعرفوا
 أخبار يوسف بحواسكم من سمع وبصر ، والروح: التنفس ، يقال أراح الإنسان إذا
 تنفس ، ثم استعمل للفرج والتنفيس من الكرب .

الإيضاح

(قالوا تالله تفتأ تذكر يوسف حتى تكون حرضا أو تكون من الهالكين)
 أى قال ولد يعقوب الذين جاءوا من مصر حين قال يا أسفا على يوسف : تالله
 لا تزال تذكر يوسف وتلهج به حتى تصير بذلك إلى مرض لا تنتفع بنفسك معه
 أو تموت من الغم .

وخلاصة ذلك - إنك الآن فى بلاء شديد وتخاف أن يحصل لك ما هو أكثر
 وأقوى منه ، وهم يريدون بذلك منعه من البكاء والأسف .

فأجابهم والتمس لنفسه معذرة على الحزن :

(قال إنما أشكو بثي وحزني إلى الله) أى لا تلموننى وأنا لم أشك إليكم

ولا إلى أحد من الخلق حزني الذي أمضى كتابه ، فأفسيته بهذه الكلمة (يا أسفا على يوسف) بل شكوت ذلك إلى الله وحده .

(وأعلم من الله ما لاتعلمون) أي وأنا أعلم في ابتلائي بفراقه مع حسن عاقبته ما لاتعلمون ، فأعلم أنه حتى يرزق ، وأن الله يجتبيه ويتم نعمته عليه وعلى آل يعقوب ، وأنتم تظنون أن يوسف قد هلك ، وأن بنيامين قد سرق فاسترق ، وتحسبون أني بحزني ساخط على قضاء الله في شيء أمضاء ولا مرد له ، وأنا أعلم أن لهذا أجلا هو بالغة ، وإني لأرى البلاء ينزل عليكم من كل جانب بذنوبكم وبتفريطكم في يوسف من قبل ، وبأخيه الذي كان يسايني عنه من بعد .

وعن ابن عباس في تفسير الآية : أنا أعلم أن رؤيا يوسف حق وأنني سأسجد له .
(يا بني اذهبوا فتحسسوا من يوسف وأخيه) أي اذهبوا إلى مصر وتعرفوا أخبارها بحواسكم من سمع وبصر حتى تكونوا على يقين من أمرها .

(ولا تياسوا من روح الله) أي لا تقنطوا من فرجه سبحانه وتنفيسه عن النفس هذا الكرب ، بما ترتاح إليه الروح ويطمئن به القلب .

(إنه لا يياس من روح الله إلا القوم الكافرون) بقدرته وسعة رحمته ويجهلون ما لله في عياده من حكم بالغة ولطف خفي ، فإذا لم يصلوا إلى ما يبتغون من كشف ضر أو جلب خير يبعثوا أنفسهم (انتحروا) لها وحزنا .

أما المؤمن حقا فلا تقطعه المصائب ولا الشدائد من رحمة ربه وتفرجه لكربه ، ومن ثم قال ابن عباس : إن المؤمن من الله تعالى على خير يرجوه في البلاء ويحمده في الرضاء .

فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسْنَأْ وَأَهْلُنَا الضَّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ
مُرْجَاةٍ فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا ، إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ

(٨٨) قَالَ هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ (٨٩)
 قَالُوا أَأَنْتَ يَا يُوسُفُ؟ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا
 إِنَّهُ مِنْ يَتَقِي وَيَصْبِرُ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ (٩٠) قَالُوا تَاللَّهِ
 لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِنْ كُنَّا لَخَاطِئِينَ (٩١) قَالَ لَا تَثْرِبَ عَلَيْكُمْ
 الْيَوْمَ ، يَعْنِي اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (٩٢) اذْهَبُوا بِقَمِيصِي
 هَذَا فَالْتَوُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ (٩٣) .

شرح المفردات

الضر: أى ضر المجاعة من الهزال والضعف ، والمزجاة الرديئة التى يدفعها التجار
 من أزرعى الشيء وزجاده: إذا دفعه برفق كما قال: «ألم تر أن الله يزرع سحاباً»
 وآثرك: أى اختارك وفضلك ، والخاطى: هو الذى يأتى بالخطيئة عمداً ، والخطىء:
 من إذا أراد الصواب صار إلى غيره ، والخطء: الذنب ، وخطأته: قلت له أخطأت ،
 ولا تثريب: أى لا لوم ولا تأنيب وترب فلان على فلان إذا عدد عليه ذنوبه ،
 ويأت بصيرا: أى يصير بصيرا فى الحال ، أو يأت إلى وهو بصير .

الإيضاح

(فلما دخلوا عليه قالوا يأيها العزيز مسنا وأهلنا الضر) أى بعد أن قبلوا وصية
 أبيهم حين قال لهم اذهبوا فتحسسوا من يوسف وأخيه ، وعادوا إلى مصر - دخلوا
 على يوسف عليه السلام فقالوا له يأيها العزيز أصابنا الهزال والضعف لما نحن فيه من
 المجاعة وكثرة العيال وقلة الطعام وقد شكوا إليه رقة الحال وقلة المال وشدة الحاجة
 وغير ذلك مما يرقى القلب مع أن مقصدهم التحسس من يوسف وأخيه - ليروا

تأثير الشكوى فيه ، فإن رق قلبه لهم ذكروا ما يريدون وإلا سكتوا وقد كان أبوهم يرجح أنه هو يوسف ، فأرادوا أن يروا تأثير هذا الاستعفاف فيه .
(وجئنا ببضاعة مزجاة) أى ببضاعة رديئة يحتقرها التجار ويدفعونها احتقارا لها .

(فأوف لنا الكيل) أى فأتمه كما تعوذنا من جميل رعايتك وإحسانك .
(وتصدق علينا) بما تزيد على حقنا ببضاعتنا بعد أن تفض عن ردايتها .
(إن الله يجزي المتصدقين) فيخاف ما ينفقون ويضاعف الأجر لهم .
وقد بالغوا في الضراعة والتذلل لما كانوا يريدون من تأثير ذلك في ملامح وجهه وجرس صوته ومغالبة دمه .

ثم بعد أن ذكر طريق تحسسهم ذكر رد يوسف عليهم .
(قال هل علمتم ما فعلتم بيوسف وأخيه) أى قال ما أعظم ما فعلتم بيوسف من قبل وبأخيه بنيامين من بعد على قرب العهد ، وما أقبح ما أقدمتم عليه ، كما يقال للمذنب هل تدري من عصيت ، وهل تعرف من خالفت .
(إذ أنتم جاهلون) قبح ما فعلتموه في حكم شرعكم ، وحقوق بر الوالدين وما يجب من رحمة القرابة والرحم .

وخلاصة ذلك - إنكم كنتم في حال يغلب عليكم فيها الجهل بهذه الحقوق وبعاقبة البغي والمعوق .

وقد يكون المراد من الجهل الطيش والنزق واتباع الهوى وطاعة الحسد والأثرة .
وقد قال لهم هذه المقالة تمهيدا ليعرفهم بنفسه ، إذ آن أن يصارحهم به بعد أن بلغ الكتاب أجله وبلغت به ونهم الأقدار غايتها ولم يبق بعد هذا إلا التصريح وتأويل رؤياه التي كانت السبب في كل ما حدث من تلك الأفاعيل .

وقد ذكر يوسف إخوته بذنوبهم تذكيرا مجملا قبل أن يتعرف إليهم بذكر

العذر وهو الجهل بقبح الذنب في ذاته وبسوء عاقبته لتمكن نزع الشيطان من أنفسهم الأمانة بالسوء ، وقد ذكروهم بطريق سؤال العارف المتجاهل على طريق التقرير لا التقرير والتوبيخ كما يدل عليه نفي التثريب والدعاء بالمغفرة .

قال صاحب الكشاف في تفسير الآية : أتاهم من جهة الدين وكان حلما موقفا فكلهم مستفهما عن معرفة وجه القبح الذى يجب أن يراعيه النائب ، فقال هل علمتم قبح (ما فعلتم بيوسف وأخيه إذ أنتم جاهلون) لا تعلمون قبحه فلذلك أقدمت عليه - يعنى هل علمتم قبحه فتبتم إلى الله منه ؟ لأن علم القبح يدعو إلى الاستقبح ، والاستقبح يجر إلى التوبة ، فكان كلامه شفقة عليهم وتنصحا لهم في الدين لامانة وبشرى ، إشارا لحق الله على حق نفسه في ذلك المقام الذى ينفس فيه المكروب ، وينفث المصدور ، ويتشقى المغيظ المحنق ، ويدرك ثأره الموتور ، فله أخلاق الأنبياء ما أوطأها وأسحجها ، والله حصا عقولهم ما أوزنها وأرجحها اه .

كان سؤاله إياهم عما فعلوا بيوسف وأخيه وهو سؤال العارف بأمرهم فيه من البداية إلى النهاية - مصدقا لما أوحاه الله إليه حين ألقوه في غيابة الجب من قوله « وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ » إذ يبعد أن يعرف هذا سواء ، فأرادوا أن يتثبتوا من ذلك ويستيقنوا به فوجهوا إليه سؤالا هو سؤال المتعجب المستغرب لما يسمع .

(قالوا أأنك لانت يوسف؟) أى قالوا من المؤكد قطعنا أنك أنت يوسف - عجبوا من أنهم يترددون عليه مدى سنتين أو أكثر وهم لا يعرفونه وهو يعرفهم ويكنم نفسه . (قال أنا يوسف) الذى ظلمتمونى غاية الظلم وقد نصرنى الله فأكرمى وأوصلنى إلىسمى المراتب ، أنا ذلك العاجز الذى أردتم قتله بالقائه في غيابة الجب ثم صرت إلى ماترون .

(وهذا أخى) الذى فرقتم بينى وبينه وظلمتموه ثم أنعم الله عليه بما تبصرون .

(قد من الله علينا) فجمع بيننا بعد الفرقة ، وأعزنا بعد الذلة ، وآسنا بعد الوحشة ، وخلصنا مما ابتلينا به .
وفيه إيحاء إلى أنه لا وجه لطلبكم بنيامين لأنه أخى لا أخوكم .

تفسيره

فإن قيل لم لم يعرف يوسف إخوته بنفسه في أول مرة ليبشروا أباهم به وبما هو عليه من حسن حال وبسطة جاه فيكون في ذلك السرور كل السرور له ؟ فالجواب عن ذلك ما أجاب به ابن القيم في كتابه [الإغاثة الكبرى] قال رحمه الله : لو عرفهم بنفسه في أول مرة لم يقع الاجتماع بهم وبأبيه ذلك الموقع العظيم ولم يحل ذلك الحل ، وهذه عادة الله في الغايات العظيمة الحميدة ، إذا أراد أن يوصل عبده إليها هيأ له أسبابا من الحزن والبلايا والمشاق ، فيكون وصوله إلى تلك الغايات بعدها كوصول أهل الجنة إليها بعد الموت وأهوال البرزخ والبعث والنشور والموقف والحساب والصراط ومقاساة تلك الأهوال والشدائد ، وكما أدخل رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى مكة ذلك المدخل العظيم بعد أن أخرجه الكفار ذلك الخروج ، ونصره ذلك النصر العزيز بعد أن قاسى مع أعداء الله ما قاساه . وكذلك ما فعل برسله كنوح وإبراهيم وموسى وهود وصالح وشعيب عليهم السلام .

فهو سبحانه يوصل إلى الغايات الحميدة بالأسباب التي تكررهما النفوس وتشق عليها كما قال « كَتَبَ عَلَيْكُمْ الْقِتَالَ وَهُوَ كُرْهُ لَكُمْ ، وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ ، وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ » وربما كان مكروه النفوس إلى محبوبها سببا ما مثله سبب .

وبالجملة فالغايات الحميدة في خبايا الأسباب المكروهة الشاقة ، كما أن الغايات المكروهة في خبايا الأسباب المشتهة المستلذة ، وهذا من حين خلق الله سبحانه الجنة وحفها بالمكاره والنار وحفها بالشهوات اه .

(إنه من يتقى ويصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين) أى إن الحق الذى نطقت به الشرائع وأرشدت إليه التجارب هو : من يتقى الله فيما به أمر وعنه نهى ، ويصبر على ما أصابه من المحن وفتن الشهوات والأهواء ، فلا يستعجل الأقدار بشيء قبل أوانه ، فإن الله لا يضيع أجره فى الدنيا ثم يؤتیه أجره فى الآخرة .

وفى الآية شهادة له من ربه بأنه من المحسنين المتقين الله ، وبأن من كان مطيعا لنفسه الأمانة بالسوء ومتبعاً لنزغات الشيطان فإن عاقبته الخزى فى الدنيا والنكال فى الآخرة ، إلا من تاب وعمل صالحاً ثم اهتدى .

(قالوا تالله لقد آثرك الله علينا) أى قال إخوة يوسف له : لقد فضلك الله علينا وآثرك بالعلم والحلم والفضل .

(وإن كنا نخطأين) أى وما كنا فى صنعنا بك وتفریقنا بينك وبين أخيك إلا متممدين للخطيئة ، ولا عذر لنا فيها عند الله ولا عند الناس .
وبعد أن قدموا له المذرة أجابهم بالصفح عما فعلوا .

(قال لا تريب عليكم اليوم) أى لا لوم ولا تعنيف عليكم فى هذا اليوم الذى هو مظنته ، ولكن لكم عندى الصفح والعمو . وهو إذالم يثرب أول لقاءه واشتعال ناره ، فبعده أولى .

وقال السيد المرتضى : إن كلمة (اليوم) موضوعة موضع الزمان كله كقوله :

اليوم يرحمنا من كان يغبطنا واليوم نتع من كانوا لنا تبعاً

كأنه أريد بعد اليوم اه .

(يعفو الله لكم وهو أرحم الراحمين) أى يعفو الله لكم عن ذنوبكم وظالمكم ويستره عليكم ، وهو أرحم الراحمين لمن أقلع عن ذنبه وأتاب إلى طاعته بالتوبة من معصيته .

وقد تمثل النبى صلى الله عليه وسلم بالآية يوم فتح مكة حين طاف بالبيت وصلى ركعتين ، ثم أتى الكعبة فأخذ بعضادى الباب وقال : « ماذا تظنون أنى

فاعل بكم؟ قالوا نظن خيرا، أخ كريم وابن أخ كريم، فقال: وأنا أقول كما قال أخى يوسف (لَا تَثْرِيْبَ عَلَيْكُمْ الْيَوْمَ)، فخرجوا كأنما نشروا من القبور». أخرجه ابن مردويه عن ابن عباس والبيهقي عن أبي هريرة.

روى أن يوسف عليه السلام لما عرّف نفسه إخوته سألمهم عن أيّهم فقالوا ذهب بصره فمئذ ذلك أعطاهم قميصه وقال: (اذهبوا بقميصي هذا) الذى على بدنى أو يئدى.

(فألقوه على وجه أبى يأت بصيرا) أى ألقوه على وجهه حين وصولكم إليه دون تأخير يصر بصيرا، وقد علم هذا إما بوحى من الله، وإما لأنه علم أن أباه ما أصابه ما أصابه إلا من كثرة البكاء وضيق النفس فإذا ألقى عليه قميصه شرح صدره وسر أعظم السرور، وقوى بصره وزالت منه هذه العشاوة التى رانت عليه، والقوانين الطيبة تؤيد هذا، كما سيأتى بعد.

(وانتوني بأهلكم أجمعين) من الرجال والنساء والذرارى وغيرهم، وقد زوى أن أهله كانوا سبعين رجلا وامرأة وولدا.

وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَنْ تُفَنِّدُونِ (٩٤) قَالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ (٩٥) فَلَمَّا أَنْ جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَى وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيرًا ، قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٩٦) قَالُوا يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ (٩٧) قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (٩٨).

شرح المفردات

يقال فصل عن البلاد: إذا انفصل وجاوز حيطانه، وتفندون: أى تنسبونى إلى

الفقد؛ وهو فساد الرأى وضعف العقل والخرف من الكبر، فى ضلالك : أى فى خطئك
أوفى إفراطك فى حبه والإصرار على اللهج به ، وارتد : أى رجع .

الإيضاح

(ولما فصلت العير قال أبوم إني لأجد ريح يوسف لولا أن تفندون) أى ولما
انفصلت عير بنى يعقوب عن حدود مصر قافلة إلى أرض الشام ، قال أبوم لمن حضره
من حفدته ومن غيرهم : إني لأشم رائحة يوسف كما عرقها فى صغره ، لولا أن تنسبونى
إلى ضعف الرأى وفساد العقل وخرف الكبر ، لصدقتمونى فى أنى أجد رائحته
حقيقة وأنه حتى قد قرب موعد لقائه والتمتع برؤيته .

وروى عن ابن عباس أنه لما خرجت العير هاجت ريح نجاءت يعقوب بريح
قيص يوسف ، قال إني لأجد ريح يوسف لولا أن تفندون ، فوجد ريحه من ثمانية
أيام : وفى رواية من ثمانين فرسخاً ، والمراد من مسافات بعيدة جدا .

(قالوا تالله إنك لفي ضلالك القديم) أى قال حاضر مجلسه : تالله إنك
لفى خطئك الذى طال أمده باعتقادك أن يوسف حتى يرجى لقاءه وقد قرب .

ولا غرو فلاخلى أن يقول فى الشجى ما شاء ، فأذته عن العذل صاء

سلوتى عنكم احتمال بعيد واقتضاحى بكم ضلال قديم

كل من يدعى المحبة فيكم ثم يخشى اللام فهو ملهم

قال قتادة فى تفسيرها : تالله إنك لفى ضلالك القديم أى من حب يوسف
لاتسأه ولا تسأه اه ، قالوا لوالدم كلمة غليظة لم يكن ينبغى لهم أن يقولوها له .

(فلما أن جاء البشير ألقاه على وجهه فارتد بصيرا) أى فلما جاء البشير وهو ابنه

يهودا الذى يحمل القميص من يوسف (وهو الذى حمل إليه قيصه اللطخ بالدم

الكذب) ليمحو السيئة بالحسنة ، ألقاه على وجه يعقوب فعاد من فوره بصيرا كما

كان - بل قد قيل إنه عادت إليه سائر قواه ، وليس ذلك بعجيب ولا منكر ، فكثيرا ما شفى السرور من الأمراض وجدد قوى الأبدان والأرواح ، والتجارب وقوانين الطب شاهد صدق على صحة ذلك . قال الدكتور عبد العزيز إسماعيل باشا : لانتحسب أعراض مرض (الجولكوما) أو شدة توتر العين أو تقف شدته إلا بالعلاج ، ومنه العمليات الجراحية ، ولكن شفاء سيدنا يعقوب بوضع التميمص على وجهه هو معجزة من المعجزات الخارجة عن قدرة الإنسان ، وليس المهم هو التميمص أو وضعه على وجهه ، فقد كان ذلك لتسهيل وقع المعجزة على الحاضرين فحسب ، ولكن المهم هو طريقة الشفاء وهي إرادة الله المنحصرة في (كن فيكون) وهي خارجة عن كل السنن الطبيعية التي أمر الإنسان أن يتعلمها ، فمظمة المعجزة ليست في النتيجة فحسب ولكن في طريق الشفاء - وما أعظم إعجاز القرآن الذي وصف حالة مرضية خاصة وبين سببها ، ولم يكن يعلم العالم شيئا عن هذا المرض في ذلك الوقت ولا بعده بزمن طويل اه .

وقد أجاب يعقوب من لاموه بما كان عليه من علم قطعي من ربه بصدق ما يقول .
 (قال ألم أقل لكم إني أعلم من الله ما لا تعلمون ؟) أى قال لهم : ألم أقل لكم حين أرسلتكم إلى مصر وأمرتكم بالتحسس ونهيتكم عن اليأس من روح الله : إني أعلم بوحى الله لامن خطرات الأوهام ما لا تعلمون من حياة يوسف عليه السلام - وقد ذكرهم الآن إذ عاد بصيرا بما كان قد قاله لهم حين ابيضت عيناه من الحزن وهو كظيم .

نبذة في تعليل شم يعقوب رائحة يوسف

أثبت العلم حديثاً أن الريح تحمل الغبار وما فيه من قارة إلى أخرى ، فتحمله من إفريقية مثلاً إلى أوروبا وهي مسافة أبعد مما بين مصر وأرض كنعان من بلاد الشام وهي بلا شك تحمل رائحة ماله منها رائحة ، ولكن الغريب شم البشر لها من المسافات البعيدة ، والإنسان إذا قيس بغيره من الوحوش والحشرات كان أضعف منها شماً ، فالكلب ذو حاسة قوية في الشم حتى ليدرّ به الآن رجال الشرطة ويستخدمونه في حوادث الإجرام من قتل وسرقة لإثبات التهمة على المجرمين ، فيأتون بالكلب المعلم فيشمّ المجرم ويخرجه من بين أشخاص كثيرين ، ويرى ذلك رجال القانون دليلاً قوياً على إثبات الجريمة على من يرشد إليه ، بل دليلاً قاطعاً في بعض الدول . والروائح منها القوي والضعيف ، ومن أضعفها رائحة جسم الإنسان وعرقه وما يصاب ثوبه منها ، ولكن ما نحن فيه من خوارق العادات ومن خواص عالم الغيب لامن السنن العادية والحوادث التي تتكرر من البشر .

وقد دلت الآية على أن يعقوب عليه السلام أخبر أنه وجد رائحة يوسف لما فصلت العير من أرض مصر ، فعلياً أن نؤمن به لأنه معصوم من الكذب ، وقد تبين صدقه بعد ، وليس بالواجب علينا أن نعرف كنهه أو نصل إلى معرفة سببه ، ولكن إذا نحن قلنا إنه لشدة تفكره في أمر ولده وتذكره لرائحته حين كان يضمه ويشمه - شعر بتلك الرائحة قد عادت له سيرتها الأولى - لم يكن ذلك مجانياً للصواب ولا معارضاً للعقل ولا ناقضاً لما يثبتته العلم ، أو قلنا بأنا نتقبل هذا بدون تعليل ولا تصوير لكيفية ذلك - لم نبعد عن العقل ولا عن العلم ، إذ لاخلاف بين العلماء في أن ما يجهله الباحثون أضعاف ما يعرفونه .

وعلى الجملة فعلياً التسليم بما أخبر به دون حاجة للبحث في كنهه أو صفته مادام ذلك داخلاً في حيز الإمكان .

(قالوا يا أبانا استغفر لنا ذنوبنا إنا كنا خاطئين) أى قال أولاده وكانوا قد وصلوا إثر البشير . يا أبانا أسأل الله أن يغفر لنا ذنوبنا التى اجترحناها من عقوبك وإيذاء أخويتنا ، إنا كنا متعمدين لهذه الخطيئة ، عاصين لله ، ظانين أن نكون بعدها قوما صالحين .

الآن اعترفوا بذنوبهم كما اعترفوا ليوسف من قبل ، لكن يوسف بادر إلى الاستغفار لهم وهم لم يطلبوه منه ، وعليك أن تسمع جواب أبيهم الآتى :

(قال سوف أستغفر لكم ربى إنه هو الغفور الرحيم) وعسدهم بالاستغفار لهم فى مستأنف الزمان ، وعلل هذا بأن ربه واسع المغفرة والرحمة ، لا ينقطع رجاء المؤمن فيها وإن ظلم وأساء .

والفارق بين جواب يعقوب وجواب يوسف من وجوه كثيرة اقتضتها الحكمة:

(١) إن حال أبيهم معهم حال الربى المرشد للمذنب ، لأحال المنتقم الذى يخشى أذاه ، وليس من حسن التربية ولا من طرق التهذيب أن يريهم أن ذنبهم هين لديه حتى يعجل بإجابة مطلبهم بالاستغفار لهم .

(٢) إن ذنبهم لم يكن موجها إليه مباشرة ، بل موجه إلى يوسف وأخيه ، ثم إليه بالتبع والززوم ، إلى أنه ليس من العدل أن يستغفر لهم إلا بعد أن يعلم حالهم مع يوسف وأخيه ، ولم يكن يعقوب قد علم بعقوب يوسف عنهم واستغفاره لهم .

(٣) إن هذا ذنب كبير وإثم عظيم طال عليه الأمد وحدثت منه أضرار نفسية وخلقية وأعمال كان لها خطرهما ، فلا يمتحن إلا بتوبة نصوح تبحث الجذور التى علقت بالأنفس والأرجاس التى باضت وأفرخت فيها .

فلا يحسن بعدئذ من الربى الحكيم أن يسارع إلى الاستغفار لمقترفها عقب طلبه حتى كأنها من هينات الأمور التى تغفر ببادرة من الندم ، ومن ثم تلبث فى الاستغفار لهم إلى أجل ليعلمهم عظيم جرمهم وأعلمهم بأنه سوف يتوجه إلى ربه ويطلب لهم الغفران منه بفضله ورحمته .

(٤) إن حال يوسف معهم كان حال القادر بل المالك القاهر مع مسيء ضعيف لديه ، عظم جرمه عليه ، فلم يشأ أن يكون الغفران بشفاعته ودعائه ، فأمنهم من خوف الانتقام تعجيلا للسرور بالنعمة الجديدة التي جعل الله أمرها بين يديه ، وليروا ويرى الناس فضل العفو عند القدرة ، وليكون لهم في ذلك أحسن الأسوة ، وفي هذا من ضروب التربية أكبر العظة والعبرة ، ولو أصر المغفرة لكانوا في وجل مما سيحل بهم ولخافوا شر الانتقام ، فكانوا في قلق دائم وتبليبل بالاضطراب نفس فكانت معرفتهم له عذابا فوق العذاب الذي هم فيه ، ولكن شاءت رحمته بهم أن يجعل السرور عاما والحياة الجديدة حائلة بالاطمئنان وقرّة العين ، وهكذا شاءت الأقدار وشاء الله أن يكون ذلك وهو العليم الحكيم .

تأويل رؤيا يوسف من قبل

فَأَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَبْوَيْهِ وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ (٩٩) وَرَفَعَ أَبْوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا ، وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي ، إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (١٠٠) .

شرح المفردات

آوى إليه أبويه : أى ضمهما إليه واعتنتهما ، ورفع أبويه : أى أصددهما ، والعرش كرسى تدبير الملك لا كل سرير يجلس عليه الملك وخروا له سجدا : أى أهوى أبواه

وإخوته إلى الأرض وخرأوله سجدا ، تأويل رؤياي : أى مآلها وعاقبتها ، وأصل النزغ : نخس الرأىض الفرس بالمهاز لإزعاجه للجري ، ثم قيل نزغه الشيطان كأنه نخسه ليحسه على المعاصي ، ونزغ بين الناس : أفسد بينهم بالحث على الشر .

المعنى الجملى

بعد أن أخبر فيما سلف أن يوسف قال لإخوته اتنوني بأهلكم أجمعين - أخبر هنا أنهم رحلوا من بلاد كنعان فأصدين بلاد مصر ، فلما أخبر يوسف بقرب مجيئهم خرج للقاءهم ، وأمر الملك أمراءه وأكابر دولته بالخروج معه للقاء نبي الله يعقوب عليه السلام .

الإيضاح

(فلما دخلوا على يوسف أبى إليه أبويه) فى العبارة حذف وإيجاز يفهم من سياق الكلام والمعنى - بعد أن ذهب إخوة يوسف إلى أبيهم وأخبروه بمكانة يوسف فى مصر وأنه الحاكم المفوض المستقل فى أمرها - أبلغوه أنه يدعوهم كلهم للإقامة معه فيها والتمتع بحضارتها فرحلوا حتى بلغوها - ولما دخلوا على يوسف وكان قد استقبلهم فى الطريق فى جمع حافل احتفاء بهم ضم إليه أبويه واعتنقهما .

وظاهر الآية يدل على أن أمه كانت لاتزال حية ورجحه ابن جرير ، وقال جمع من المفسرين إن المراد بأبويه أبوه وخالته ، لأن أمه قد ماتت قبل ذلك فتزوج أبوه خالته .

(وقال ادخلوا مصر إن شاء الله آمنين) أى وقال لهم ادخلوا بلاد مصر إن شاء الله آمنين على أنفسكم وأنعامكم من الجوع والهلاك ، فإن سنى القحط كانت لاتزال باقية ، وذكر المشيئة فى كلامه للتبرؤ من مشيئته وحوله وقوته إلى مشيئة الله الذى سخر ذلك لهم وسخر ملك مصر وأهلها له ثم لهم ، وهذا من شأن المؤمنين ولا سببا الأنبياء والصديقون .

وفي سفر التكوين من التوراة أن يوسف عليه السلام عرف نفسه إلى إخوته عقب مجيئهم بينيامين شقيقه وأرسلهم لاستحضار أبيه وأهلهم ، فجاءوا فأقطعهم أرض جاسان (إقليم الشرقية الآن) وأرسل إليهم العربات لتحملهم وأحمال الغذاء والثياب على الحمير ، فلما وصلوا إليها شد يوسف على مركبته وصعد ليلاق إسرائيل أباه في جاسان ، فلما ظهر له ألقي بنفسه على عنقه وبكى طويلا ، ثم استأذنهم ليذهب إلى فرعون ويخبره بمجيئهم ومكانهم فيقرهم عليه ، لأنهم رعاة وأرض جاسان خصبة ففعل ، ثم أخذ وفدا منهم لمقابلة فرعون وأدخل أباه عليه فبارك فرعون .

ومن هذا يتبين أن هذا اللقاء كان هو الأول لهم ، وبعد لقاء فرعون قال لهم ادخلوا مصر ثم عاد بهم إلى قصره الخاص .

(ورفع أبيوه على العرش) أى أضعده أبيوه إلى السرير الذى كان يجلس عليه لتدبير أمر الملك تكريما لهما فوق ما فعله بالإخوة .

(وخرؤا له سجدا) أى أهوى أبواه وإخوته وخرؤا له سجودا ، وكان ذلك تحية الملوك والعظماء فى عهدهم ، ومن ثم سجد يعقوب لأخيه عيسو حين تلاقيا بعد تفرق .

والسجود ليس عبادة بذاته ، وإنما يكون كذلك بالنية والتزام الصفة الشرعية فيه .

(وقال يآبت هذا تأويل رؤياى من قبل) أى هذا السجود منك ومن إخوتى الأحد عشر هو المآل والعاقبة التى آلت إليها رؤياى التى رأيتها من قبل فى صغرى « إني رأيتُ أحدَ عشرَ كوكباَ والشمسَ والقمرَ رأيتُهُم لي ساجدين » .

(قد جعلها ربى حقا) أى قد جعلها ربى حقيقة واقعة واستبان أنها لم تكن أضغاث أحلام ، فالكواكب الأحد عشر مثال إخوتى الأحد عشر ، وأنت وأمى مثال الشمس والقمر ، ولا بدع فى ذلك فهذه الأسرة هى التى حفظ الله بها ذرية إسحاق بن إبراهيم لتنتشر دين التوحيد بين العالمين فكانت خير أسر البشر جميعا .

(وقد أحسن بي إذ أخرجني من السجن وجاء بكم من البدو) أى وقد أحسن بي ربى إذ أخرجني من السجن وسما بي إلى عرش الملك ، وجاء بكم من البادية حيث كنتم تعيشون فى شطف العيش وخشونته ، ونقلكم إلى الحضرة حيث تعيشون فى نعم الاجتماع ونشر الدين الحق ، وتعاونون على ترقى العلوم والصناعات . ولم يذكر له إخراجه من الجب لوجوه :

(١) إنه ذكر آخر الحن المتصلة بنهاية النعم .
 (٢) إنه لو ذكر حادث الجب لكان فى ذلك تزيب لإخوته وقد قال (لا تزيب عليكم اليوم) .

(٣) إنه بعد خروجه منه صار عبدا لملك .
 (٤) إنه بعد خروجه منه وقع فى مضارّة تهمة المرأة التى بسببها دخل السجن .
 وعلى الجملة فالنعم الكاملة إنما حصلت بعد خروجه من السجن .
 (من بعد أن نزع الشيطان بينى وبين إخوتى) أى من بعد أن أفسد الشيطان ما بينى وبين إخوتى من عاطفة الأخوة ، وقطع ما بيننا من وشيجة الرحم ، وهيج الحسد والشر .

(إن ربى لطيف لما يشاء) أى إن ربى عالم بدقائق الأمور رفيع بعباده ، فينفذ ما يشاء فى خلقه بحكمته البالغة ، فمن ذا الذى كان يدور بخلده أن الإلقاء فى الجب يعقبه الرق ، ويتلو الرق فتنة العشق ، ومن أجله يزعج فى غيابات السجن ، ومن ذا إلى السيادة والملك .

(إنه هو العليم الحكيم) أى إنه هو العليم بمصالح عباده فلا تخفى عليه مبادئ الأمور وغايتها ، الحكيم الذى يفعل الأمور على وجه الحكمة والمصلحة ، فيجازى الذين أحسنوا بالحسنى ، ويجعل العقاب للمتقين .

وبعد أن حمد يوسف ربه على لطفه فى مشيئته وعلمه وحكمته - تلا ذلك بالدعاء فقال :

طلب يوسف من ربه حسن الخاتمة

رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ
السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَآيِي فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي
بِالصَّالِحِينَ (١٠١) .

الإيضاح

(رب قد آتيتنى من الملك) أى قال يوسف بعد ما جمع الله له أبويه وإخوته ،
وبسط عليه من الدنيا ما بسط من الكرامة ، ومكن له فى الأرض : رب قد آتيتنى
ملك مصر وجملتى متصرفا فيها بالفعل وإن كان لغيرى بالاسم ، ولم يكن لى فيها
حاسد ولا باغ إذ أجريت الأمور على سنن العدل ووفق الحكمة والسداد .
(وعلمتني من تأويل الأحاديث) أى وعلمتني ما أعبر به عن مآل الحوادث
ومصداق الرؤى الصحيحة فتقع كما قلت وأخبرت .
(فاطر السموات والأرض) أى مبدعهما وخالقهما .

(أنت ولى فى الدنيا والآخرة) أى أنت متولى أمورى ومتكفل بها ، وأنت
موال لى وناصرى على من عادانى وأرادنى بسوء وإن نعمك لتعمرنى فى الدنيا ،
وسأتمتع بها بفضلك ورحمتك فى الآخرة ، ولا حول لى فى شىء منهما ولا قوة .

(توفى مسلما) أى اقبضنى إليك مسلما ، وأتم لى وصية أبائى وأجدادى .
« وَوَصَّي بِهَا إِبْرَاهِيمَ بَنِيهِ وَيَعْقُوبَ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمْ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ
إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ » .

(وألحقتنى بالصالحين) أى وألحقتنى بصالح أبائى إبراهيم وإسحاق ومن قبلهم

من أنبيائك ورسلك ، واحشرنى فى زمرتهم ، وهذا الدعاء بمعنى ما جاء فى سورة الفاتحة « اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ . صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ » أى من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين .

فى ذكر هذا القصص إثبات لنبوة محمد عليه السلام

ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ (١٠٢) وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ (١٠٣) وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ (١٠٤) .

الإيضاح

(ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك) أى إن نبأ يوسف ووالده يعقوب وإخوته وكيف مكن ليوسف فى الأرض وجعل له العاقبة والنصر وآتاه الملك والحكمة فساس ملكا عظيما وأحسن إدارته وتنظيمه وكان خير قدوة للناس فى جميع ما دخل فيه من أطوار الحياة ، بعد أن أرادوا به السوء والهلاك حين عزموا أن يجعلوه فى غيابة الجب - كل ذلك من أخبار الغيب الذى لم تشاهده ولم تره ، ولكننا نوحيه إليك لتثبت به قوادك ، فتصبر على ما نالك من الأذى من قومك ، وتعلم أن من قبلك من الرسل لما صبروا على ما نالهم فى سبيل الله ، وأعرضوا عن الجاهلين فازوا بالظفر وأيدوا بالنصر وغلبوا أعداءهم .

ثم أقام الدليل على كونه من الغيب بقوله :

(وما كنت لديهم إذ أجمعوا أمرهم وهم يمكرون) أى وما كنت حاضرا عندهم ولا مشاهدا حين صحت عزائمهم على أن يلقوا يوسف فى غيابة الجب ، يبغون بذلك هلاكه والخلاص منه ، وهذا كقولته تعالى بعد سياق موسى « وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ

الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا» الآية، وقوله في هذه القصة « وَمَا كُنْتَ نَاوِيًا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتَلَّوْا عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا » الآية .

وخلاصة هذا - إن الله أطلع رسوله على أنباء ما سبق ليكون فيها عبرة للناس في دينهم ودنياهم ، ومع هذا ما آمن أكثرهم ، ومن ثم قال :
(وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين) أى وما أكثر مشركى قومك ولو حرصت على أن يؤمنوا بك ويتبعوا ما جئتهم به من عند ربك - بمصدقيك ولا متبعيك .

قال الرازى : إن كفار قريش وجماعة من اليهود طلبوا ذكر هذه القصة من رسول الله صلى الله عليه وسلم على سبيل التعتت ، فلما ذكرها أصروا على كفرهم فنزلت هذه الآية ، وكأنه إشارة إلى ما ذكره الله تعالى في قوله « إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ » .

(وما تسألهم عليه من أجر) أى وما تسأل هؤلاء الذين ينكرون نبوتك على ما تدعوهم إليه من إخلاص العبادة لربك وطاعته وترك عبادة الأصنام والأوثان من أجر وجزاء منهم ، بل ثوابك وأجر عملك على الله .

والخلاصة - إنك لا تسألهم على ذلك مالا ولا منفعة فيقولوا إنما تريد بدعائك إيانا إلى اتباعك أن نزل لك عن أموالنا إذا سألنا عن ذلك ، فإلك حال من سبقك من الرسل ، فهم لم يسألوا أقوامهم أجرا على التبليغ والهدى ، والقرآن ملء بنحو هذا كما في سورتي هود والشعراء وغيرها .

وإذا كنت لا تسألهم على ذلك أجرا فقد كان حقا عليهم أن يعلموا أنك إنما تدعوهم إليه اتباعا لأمر ربك ونصيحة منك لهم .

(إن هو إلا ذكر للعالمين) أى هذا الذى أرسلك به ربك تذكير وموعظة لإرشاد العالمين كافة لا لهم خاصة ، وبه يهتدون وينجون في الدنيا والآخرة .

وفي الآية إيماء إلى عموم رسالته صلى الله عليه وسلم .

وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا
مَعْرَضُونَ (١٠٥) وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ (١٠٦)
أَفَأَمِنُوا أَنْ تَأْتِيَهُمْ غَاشِيَةٌ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً
وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (١٠٧)

شرح المفردات

وكأين : بمعنى كثير ، والآية هنا: الدليل الذي يرشد إلى وجود الصانع ووحده
وكمال علمه وقدرته ، يمررون عليها : يشاهدونها ، معرضون : أى لا يعتبرون بها ،
والغاشية : العقوبة تغشاهم وتعمهم ، وبغته : فجأة .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه أن أكثر الناس لا يؤمنون بما حُرِّصت على إيمانهم
ولا يتأملون فى الدلائل الدالة على نبوتك - ذكر هنا أن هذا ليس ببدع منهم ،
فإن أكثرهم فى غفلة عن التفكير فى آيات الله ودلائل توحيده بما خلقه فى السموات
من كواكب ثابت وسيارات ، وأفلاك دائرات ، وفى الأرض من حدائق
وجنات ، وجبال راسيات ، وبحار زاخرات ، وقفار شاسعات ، وحيوان ونبات :
وفى كل شيء له آية تدل على أنه الواحد

الإيضاح

(وكأين من آية فى السموات والأرض يمررون عليها وهم عنها معرضون) أى وم
فى السموات والأرض من آيات دالة على توحيد الله وكمال علمه وقدرته من شمس
وقمر ونجوم وجبال وبحار ونباتات وأشجار يمر عليها أكثر الناس وهم غافلون عما فيها

من عبرة ودلالة على توحيد ربها ، وأن الأوهية لا تكون إلا للواحد القهار الذي خلقها وخلق كل شيء فأحسن تدييره .

وعلى الجملة فما في السموات والأرض من عجائب وأسرار وإتقان وإبداع -
ليدل أتم الدلالة على العلم المحيط والحكمة البالغة والقدرة التامة .

والذين يشتغلون بعلم ما في السموات والأرض وهم غافلون عن خالقهما ، ذاهلون عن ذكره ، يتمتعون عقولهم بلذة العلم ، ولكن أرواحهم تبقى محرومة من لذة الذكر ومعرفة الله عز وجل ، إذ الفكر وحده وإن كان مفيداً لا تكون فائدته نافعة في الآخرة إلا بالذكر ، والذكر وإن أفاد في الدنيا والآخرة لا تكمل فائدته إلا بالفكر ، فطوبى لمن جمع بين الأمرين فكان من الذين أوتوا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة ونجوا من عذاب النار في الآخرة .

(وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون) أى وما يقر هؤلاء بأن الله هو الخالق كما قال « وَلَكِنَّ سَاءَ لِنَبِهِمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ » إلا وهم مشركون به في عبادتهم سواء من الأوثان والأصنام ومن زعمهم أن له ولداً ، تعالى عما يقولون .

قال ابن عباس هم أهل مكة آمنوا وأشركوا وكانوا يقولون في تليبتهم : لبيك اللهم لبيك ، لبيك لا شريك لك ، إلا شريكاً هو لك ، تملكه وما ملك ، وهذا هو الشرك الأعظم ، إذ يعبد مع الله غيره ، وفي صحيح مسلم أنهم كانوا إذا قالوا لبيك لا شريك لك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (قَدْ ، قَدْ) أى حسب حسب لا تزيدوا على هذا ، وفي الصحيحين عن ابن مسعود « قات يارسول الله : أى الذنب أعظم ؟ قال : أن تجعل لله نداً وهو خلقك » .

ومن درس تاريخ الأمم الماضية والحاضرة عرف كيف طرأ الشرك على الأمم ، وسرى في عبادتهم سر يان السم في الدم .

قال ابن القيم في إغاثة اللهفان : وما زال الشيطان يوحى إلى عبّاد القبور منهم أن الدعاء عندها مستجاب ، ثم يتعلمهم من هذه المرتبة إلى الدعاء لها والإقسام على الله بها - مع أن شأن الله أعظم من أن يقسم عليه أو يسأل بأحد من خلقه - فإذا تقرر ذلك عندهم ، تعلمهم منه إلى دعائه وعبادته وسؤاله الشفاعة من دون الله ، واتخاذ قبره وثناً تطلق عليه القناديل والستور ، ويطاف به ويستلم ويقبل ويحج إليه ويدبح عنده ، فإذا تقرر هذا عندهم تعلمهم منه إلى دعاء الناس إلى عبادته واتخاذ عيدا ومنسكا ، ورأوا أن ذلك أنفع لهم في دنياهم وأخرامهم ، وكل هذا مما علم بالاضطرار من دين الإسلام أنه مضاد لما بعث الله رسوله صلى الله عليه وسلم من تجديد التوحيد وألا يعبد إلا الله اه .

أما التوسل إلى الله بصالحى عباده كقولهم اللهم بجاه فلان عندك أو بحق فلان أو بجرمته أسألك أن تفعل كذا فلم ينقل عن أحد من سلف الأمة أنهم كانوا يدعون بمثل هذا الدعاء ، وما أخرجه الطبراني من حديث فاطمة بنت أسد من قوله (بحق نبيك والأنبياء من قبلى) فقد طعن فيه رجال الحديث ، على أنه ليس فيه إلا الدعاء بحق النبيين فحسب ، وهو ما فضاهم الله به على غيرهم من النبوة والرسالة وما وعدهم به من التمكين والنصر ، على أن حقوق الرسل وصالح الصالحين ليست من أعمال السائل التى يستحق عليها الجزاء ولا رابطة تربطها بإجابة سؤاله . (أفأمنوا أن تأتيهم غاشية من عذاب الله أو تأتيهم الساعة بغتة وهم لا يشعرون؟) أى أفأمن هؤلاء الذين يؤمنون بالله ربهم ويشركون به فى عبادته غيره ، أن تأتيهم عقوبة تغشاهم وتغمرهم ، أو تأتيهم الساعة فجأة حيث لا يتوقعون ، وهم مقيمون على شركهم ، وكفرهم بربهم ، فيخلدهم فى نار جهنم .

والآية كقوله « أفأمن الذين مكروا السيئات أن يخسف الله بهم الأرض؟ أو يأتيهم العذاب من حيث لا يشعرون . أو يأخذهم في تقلبيهم؟ فما هم بمعجزين . أو يأخذهم على تخوف؟ فإن ربكم لرهوف رحيم . »

وقوله « أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيِّنًا وَهُمْ نَاعِمُونَ ؟ أَوْ أَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَابِسُونَ ؟ أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ ؟ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ » .

وجاء في الصحيحين عن أبي هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال « ولتقومن الساعة وقد نشر الرجلان ثوبهما فلا يتباعدانه ولا يطويانه ، ولتقومن الساعة وقد انصرف الرجل بلبن لقحته (الناقة ذات الدر) فلا يطعمه ، ولتقومن الساعة وقد رفع أحدكم أكلته (لقمته) إلى فيه فلا يطعمها » والمراد من كل هذا أنها تبغث الناس وهم منهمكون في أمور معاشهم فلا يشعرون إلا وقد أتتهم .

والحكمة في إبهام وقتها أن الفائدة لا تتم إلا بذلك ، ليخشى أهل كل زمان إتيانها في هذا الوقت ، فيحملهم الخوف على مراقبة الله تعالى في أعمالهم فيلتزموا الحق ويتحروا الخير ويتقوا الشرور والمعاصي .

قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي ، وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٠٨) وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رَجُلًا نُوحِيَ إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ ، أَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ، وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا أَفَلَا تَعْقِلُونَ ؟ (١٠٩)

المعنى الجملى

بعد أن أبان سبحانه أن أكثر الناس لا يفكرون فيما في السموات والأرض من آيات، ولا يعتبرون بما فيها من علامات، تدل على أن الله هو الواحد الأحد، الفرد

الضمد - أمر رسوله أن يخبر الناس أن طريقه هي الدعوة إلى توحيد الله وإخلاص العبادة له وحده يدعويها هو ومن اتبعه على بصيرة وبرهان .

الإيضاح

(قل هذه سبيلي أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني) أي قل أيها الرسول: هذه الدعوة التي أدعو إليها ، والطريقة التي أنا عليها ، من توحيد الله وإخلاص العبادة له دون الأوثان والأصنام هي سنتي ومنهاجي ، وأنا على يقين مما أدعو إليه ولدي الحجة والبرهان على ما أقول ، وكذلك يدعو إليها أيضا من اتبعني وآمن بي وصدقني . والآية كقوله : « ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ » . (وسبحان الله) أي وأتزه الله وأعظمه من أن يكون له شريك في ملكه ، أو أن يكون هناك معبود سواه ، تعالى عن ذلك علوا كبيرا : « تَسْبُحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا » .

(وما أنا من المشركين) أي وأنا بريء من أهل الشرك به لست منهم ولا هم مني .

وفي قوله : (على بصيرة) إيماء إلى أن هذا الدين الخفيف لا يطلب التسليم ينظرياته ومعتقداته بحكايتها فحسب ، ولكنه دين حجة وبرهان ، فقد ذكر مذاهب المخالفين وكره عليها بالحجة ، وخاطب العقل ، واستنهض الفكر ، وعرض نظام الأكوان ، وما فيها من الإحكام والإتقان ، على أنظار العقول وطالبها بالإيمان فيها ، لتعمل بذلك إلى اليقين بصحة ما ادعاه ودعا إليه .

نقل البغوي عن ابن عباس في تفسير قوله : « وَمَنْ اتَّبَعَنِي » يعني أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم كانوا على أحسن طريقة ، وأقصد هداية ، معدن العلم ، وكثر الإيمان ، وجند الرحمن ، وعن ابن مسعود . أولئك أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم

كانوا أفضل هذه الأمة ، وأبرها قلوبا ، وأعمها علما ، وأقلها تكلفا ، اختارهم الله
 لصحبة نبيه ، وإقامة دينه ، فاعرفوا لهم فضلهم ، واتبعوهم على إثرم ، وتمسكوا
 بما استطعتم من أخلاقهم وسيرهم ، فإنهم كانوا على الصراط المستقيم .
 وقد كان من شبه منكرى نبوة محمد صلى الله عليه وسلم أن الله لو أراد إرسال
 رسول لبعث ملكا كما حكى عنهم سبحانه : « لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لَأَنْزَلْنَا مَلَائِكَةً »
 فرد سبحانه عليهم بقوله :

(وما أرسلنا من قبلك إلا رجلا نوحى إليهم من أهل القرى) فكيف عجبت
 منك ولم يعجبوا ممن قبلك من الرسل ، ونظير هذا قوله : « وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ
 الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنْهَمُمْ لِيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ » وقوله :
 « وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَداً لَأَيَّا كُلُونَ الطَّعَامِ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ » وقوله : « قُلْ مَا كُنْتُ
 بِدَعَا مِنَ الرُّسُلِ » الآية .

وهذه الشبهة ذكرت في كثير من السور كالأعراف وإبراهيم والنحل والكهف
 والأنبياء والشعراء ، وقال الجافظ بن كثير : يخبر تعالى أنه إنما أرسل رسله من الرجال
 لا من النساء ، وهذا قول الجمهور كما دل عليه سياق هذه الآية الكريمة ، فالله لم يوح
 إلى امرأة من بنات بنى آدم وحى تشريع اه .

وفي قوله : (من أهل القرى) أى من أهل الأمصار دون البوادي إيماء إلى أن
 سائر البلدان تتبعهم إذا آمنوا ، ولأن أهل البادية أهل جفاء ، يرشد إلى ذلك قوله
 عليه السلام « من بدا جفا ، ومن اتبع الصيد غفل » .

ثم أتبع ذلك بتأنيبهم وتهديدهم على تكذيبهم بالرسول صلى الله عليه وسلم فقال :
 (أفلم يسيروا فى الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم ؟) أى أفلم يسيروا
 هؤلاء المشركون من كفار قريش ممن يكذبونك ويحسدون نبوتك وينكرون
 ما حجتهم به من توحيد الله وإخلاص العبادة له ، فينظروا فيما وطئوا من البلاد من
 أوقعتهم من الأمم قبلهم كقوم لوط وصالح وسائر من عذبهم الله من الأمم ، وما

أخلفنا بهم من بأسنا بتكذيبهم رسلنا ، ووجودهم بآياتنا ، ويعتبروا بما حل بهم .
ثم رغب في العمل للآخرة فقال :

(ولدار الآخرة خير للذين اتقوا) أى إن الدار الآخرة للذين آمنوا بالله ورسله
واتقوا الشرك به وارتكاب الآثام والمعاصي - خير من هذه الدار للعشركين المنكرين
للبعث المكذبين بالرسل والذين لاحظ لهم من هذه الحياة إلا التمتع بلذاتها .
فإن نعيمها البدني أكمل من نعيم الدنيا ، لدوامه وثباته . وخلوه عن المنغصات
والآلام ، فما بالك بنعيمها الروحي من لقاء الله ورضوانه وكمال معرفته .

(أفلا تعقلون؟) هذا الفرق أيها المكذبون بالآخرة ، أما إنكم لو عقلمت ذلك لآمنتكم .
ثم ذكر سبحانه تثبيتنا لنواده عليه السلام أن العاقبة لرسله ، وأن نصره تعالى
ينزل عليهم حين ضيق الحال وانتظار الفرج كما قال : « كَتَبَ اللَّهُ لَأَعْلِينَ أَنَا وَرُسُلِي »
وقال : « إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا » وأن نصره يأتيهم إذا تمادى المبطون
في تكذيبهم فقال :

حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْسَسَ الرُّسُلُ وَوَظَنُوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِّبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا
فَنَجَّيْنَا مِنَ نَشَاءِ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ (١١٠) لَقَدْ كَانَ
فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ، مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَكِن
تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ
يُؤْمِنُونَ (١١١) .

شرح المفردات

الظن هنا : إما بمعنى اليقين وإما بمعنى الحسبان والتقدير ، والبأس : العقاب ،
والألباب : العقول واحدها لب ، وسعى بذلك لكونه خالص مافي الإنسان من قواه ،
والعبرة : الحال التي يتوصل بها من قياس ما ليس بمشاهد بما هو بمشاهد .

الإيضاح

(حتى إذا استيأس الرسل وظنوا أنهم قد كذبوا جاءهم نصرنا) أى وما أرسلنا قبلك إلا رجلا نوحى إليهم من أهل القرى فدعوا من أرسلوا إليهم إلى توحيد الله وإخلاص العباداة له فكذبوا بما جاءهم به ، وردوا ما أتوا به من عند ربهم ، حتى إذا يئس الرسل من إيمانهم لانهما كهم فى الكفر وتماديهم فى الطغيان من غير وازع ، وظنت الأمم أن الرسل الذين أرسلوا إليهم قد كذبوهم فيما كانوا أخبروهم عن الله من وعده لهم النصر عليهم - جاءهم نصرنا .

وهذه سنة الله فى الأمم ، يرسل إليهم الرسل بالبينات ، ويؤيدهم بالمعجزات ، حتى إذا أعرضوا عن الهداية ، وعاندوا رسل ربهم ، وامتدت مدة كيدهم وعدوانهم ، واشتد البلاء على الرسل واستشعروا بالفتنوط من تمادى التكذيب وتراخى النصر - جاءهم نصر الله فجأة ، وأخذ المكذبين العذاب بقبته ، كالطوفان الذى أغرق قوم نوح ، والريح التى أهلكت عادا قوم هود ، والصيحة التى أخذت ثمود ، والغسق الذى نزل بقرى قوم لوط وهم فيها كما قال : « أَلَمْ يَأْتِيهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ وَالْمُؤْتَفِكَاتِ ، أَنْتَهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ » .

وفى هذا تذكير لكفار قريش بأن سنته تعالى فى عباده واحدة لا تظلم فيها ولا محاباة ، وبأنهم إن لم ينيبوا إلى ربهم حل بهم من العذاب ما حل بأمثالهم من أقوام الرسل كما قال فى سورة القمر : « أَكْفَارُكُمْ خَيْرٌ مِنْ أَوْلِيكُمْ أَمْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ ؟ » وقد نصر الله نبيه صلى الله عليه وسلم فى غزوة بدر وما بعدها من الغزوات ، وأهلك الجاحدين المعاندين من قومه .

روى البخارى بسنده عن عائشة رضى الله عنها قالت لابن أختها عروة بن الزبير وهو يسألها عن قول الله تعالى : (حتى إذا استيأس الرسل) الآية ، هم أتباع الرسل الذين آمنوا بربهم وصدقوهم ، فظال عليهم البلاء واستأخر عليهم النصر ، حتى إذا

استيأس الرسل ممن كذبهم من قومهم ، وظنت الرسل أن أتباعهم قد كذبوهم -
جاءهم نصر الله عند ذلك .

وعن عائشة أن النبي صلى الله عليه وسلم قرأ وظنوا أنهم قد كذبوا (مخففة)
أخرجه ابن مردويه من طريق عكرمة ، ونحوه عن ابن عباس قال : يئس الرسل أن
يستجيبوا لهم وظن قومهم أن الرسل كذبوهم بما جاءوهم به جاءهم نصرنا ، ونحوه
عن ابن مسعود قال حفظت عن رسول الله في سورة يوسف أنهم قد كذبوا مخففة اه .
(فنجى من نساء) أى فنجى الرسل ومن آمن بهم من أقوامهم ، لأنهم على
حسب ما وضع الله من تأثير الأعمال في طهارة النفوس وزكائها - هم الذين يستحقون
النجاة دون غيرهم كما قال : « قَدْ أَقْلَحَ مَنْ زَكَاهَا ، وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا » .

(ولا يرد بأسنا عن القوم المجرمين) أى ولا يمنع عقابنا وبطشنا عن القوم
الذين أجزموا فكفروا بالله وكذبوا رسله ، وما أتوهم به من عند ربهم .
وقد جرت سنة الله أن يبلغ الرسل أقوامهم ويقيموا عليهم الحجة وينذروهم
سوء عاقبة الكفر والتكذيب ، فيؤمن المتهتدون ، ويصر المعاندون ، فينجى الله
الرسل ومن آمن من أقوامهم ويهلك المكذبين .

ولا يخفى ما في الآية من التهديد والوعيد لكفار قريش ومن على شاكلةهم من
المعاصرين للنبي صلى الله عليه وسلم .

(لقد كان في قصصهم عبرة لأولى الألباب) قص الخبر : حدث به على أصح
الوجوه وأصدقها ، من قولهم قص الأثر واقتضه إذا تبعه وأحاط به خبراً ، أى لقد
كان في قصص يوسف عليه السلام مع أبيه وإخوته عبرة لذوى العقول الراجحة
والأفكار الثاقبة ، لأنهم هم الذين يمتثلون بعواقب الأمور التي تدل عليها أوائلها
ومقدماتها ، أما الأغرار الغافلون فلا يستعملون عقولهم في النظر والاستدلالات ،
ومن ثم لا يفيدهم النصح .

وجه الاعتبار بهذه القصة أن الذى قدر على إنجاء يوسف بعد إلقائه في غيابة
الحب وإعلاء أمره بعد وضعه في السجن ، وتبليكه مصر بعد أن بيع بالثلثين البعس ،

والتمكنين له في الأرض من بعد الإسار والحبس الطويل ، وإعزازه على من قصده بالسوء من إخوته ، وجمع شمله بأبويه وبهم بعد المدة الطويلة المدى ، والحجى بهم من الشقة البعيدة النائية - إن الذي قدر على ذلك كله تقادر على إعزاز محمد صلى الله عليه وسلم وإعلاء كلمته ، وإظهار دينه ، فيخرجه من بين أظهركم ، ثم يظهره عليكم ، ويمكن له في البلاد ، ويؤيده بالجند والرجال ، والأتباع والأعوان ، وإن مرت به الشدائد ، وأنت دونه الأيام والحوادث .

(ما كان حديثا يفترى ولكن تصديق الذي بين يديه) أى ما كان هذا القصص حديثا يخلق ويفترى لأنه نوع أعجز حلة الأحاديث ورواة الأخبار - ممن لم يطالع الكتب ولم يخاطب العلماء ، فهو دليل ظاهر ، وبرهان قاهر ، على أنه جاء بطريق الوحي والتنزيل ، ومن ثم قال ولكن تصديق الذي بين يديه أى من الكتب السماوية التي أنزلها الله قبله على أنبيائه كالتوراة والإنجيل والزيور ، أى تصديق ما عندهم من الحق فيها ، لا كل الذي عندهم ، فهو ليس بمصدق لما عندهم من خرافات فاسدة ، وأوهام باطلة ، لأنه جاء لمحوها وإزالتها ، للإثباتها وتصديقها .
(وتنصیل کل شیء) من أمر الله ونبيه ، ووعدته ووعدته ، وبيان ما يجب له تعالى من صفات الكمال وتنزهه عن صفات النقص ، وفيه قصص الأنبياء مع أقوامهم ، لما فيها من عبر وعظات وسائر ما بالعباد إليه حاجة .

وعلى الجملة ففي القرآن تفصيل كل شيء يحتاج إليه في أمر الدين ، وقد أسهب في موضع الإسهاب وأوجز حيث يكفي الإيجاز ، ففصل الحق في العقائد بالحجج والدلائل ، وفي الفضائل والآداب وأصول الشريعة وأمهات الأحكام بما به تصلح أمور البشر وشئون الاجتماع .

(وهدى) أى وهو هدى لمن تدبره ، وأنعم في النظر فيه وتلاه حتى تلاوته ، فهو مرشد إلى الحق وهاد إلى سبيل الرشاد وعمل الخير والصلاح ، في الدين والدنيا .

(ورحة لقوم يؤمنون) أى وهو رحة عامة للمؤمنين الذين تنفذ فيهم شرائعهم
في دينهم وديانهم .

والمخاضون لها من غير المؤمنين يكونون في ظلها آمنين على أنفسهم وأموالهم
وأعراضهم ، أحراراً في عقائدهم وعباداتهم ، مساوين للمؤمنين في حقوقهم ومعاملاتهم ،
يعيشون في بيئة خالية من الفواحش والمنكرات التي تفسد الأخلاق وتبعث بالفضائل .
نسأل الله العظيم أن يجعلنا منهم في الدنيا والآخرة ، وأن يحشرنا في زمرة
الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين يوم تسود وجوه
وتبيض وجوه وأن يجعل خواتمنا خير الخواتم في الدنيا والآخرة كما جعل خاتمة يوسف
مع أبويه وإخوته كذلك .

إجمال ما جاء في سورة يوسف

- (١) قصص يوسف رؤياه على أبيه يعقوب .
- (٢) نهى يعقوب لولده عن قَصِّهِ قِصَّةَهُ على إخوته .
- (٣) تديبرهم المكيدة ليوسف وإلقائه في غيابة الجب .
- (٤) ادعاؤهم أن الذئب قد أكله .
- (٥) عثور قافلة ذاهبة إلى مصر عليه والتقاطها له .
- (٦) بيعها إياه في مصر بثمن بخس لعزيز مصر .
- (٧) وصية العزيز لامراته بإكرام مشواه .
- (٨) مراودة المرأة له عن نفسها وإعداد الوسائل لذلك .
- (٩) تمتعه من ذلك إكراماً لسيدة الذى أكرم مشواه .
- (١٠) قذُّها لقميصه وادعاؤها عليه أنه هو الذى أراد بها الفاحشة .
- (١١) شهادة شاهد من أهلها بما يجلى الحقيقة .
- (١٢) افتضاح أمرها في المدينة لدى النسوة .
- (١٣) تديبرها المكيدة لأولئك النسوة وإحكام أمرها .
- (١٤) إدخاله السجن اتباعاً لمشيئتها .

- (١٥) تعبيره رؤيا فتين دخلا معه السجن .
- (١٦) رؤيا الملك وطلبه تعبيرها .
- (١٧) إرشاد أحد الفتين للملك عن يوسف وأنه نعم المعبر لها .
- (١٨) طلب الملك إحضاره من السجن واستخلافه لنفسه .
- (١٩) توليته رئيسا للحكومة ومهيمنًا على ماليها .
- (٢٠) مجيء إخوة يوسف إليه وطلبه منهم أن يحضروا أخاهم لأبيهم .
- (٢١) إرجاع البضاعة التي جاءوا بها .
- (٢٢) إحضارهم أخاه إليه بعد إعطائهم الموثق لأبيهم .
- (٢٣) طلب أبيهم أن يدخلوا المدينة من أبواب متعددة .
- (٢٤) إخبار يوسف لأخيه عن ذات نفسه .
- (٢٥) أذان المؤذن أن العير قد سرقوا .
- (٢٦) قول الإخوة إن أخاه قد سرق من قبل بعد حجزه عنده .
- (٢٧) طلب الإخوة من يوسف أن يأخذ أخدم مكانه .
- (٢٨) وجود غشاوة على عيني يعقوب من الحزن .
- (٢٩) تعريف يوسف بنفسه لإخوته .
- (٣٠) حين جاء البشير بقميص يوسف ارتد يعقوب بصيرا .
- (٣١) طلب الإخوة من أبيهم أن يستغفر لهم .
- (٣٢) رفع يوسف أبويه على العرش .
- (٣٣) قول يوسف لأبيه هذا تأويل رؤياي من قبل .
- (٣٤) دعاؤه بحسن الخاتمة .
- (٣٥) في هذا القصص إثبات لنبوته محمد صلى الله عليه وسلم .
- (٣٦) تحذير المشركين من نزول العذاب بهم كما حدث لمن قبلهم .
- (٣٧) لم يرسل الله إلا رجلا وما أرسل ملائكة .
- (٣٨) نصر الرسل بعد الاستيئاس .
- (٣٩) في قصص الرسل عبرة لأولى الألباب .